
رحلة في
قطار الشعراء
كتبها : أحمد سويلم
رسمها : أحمد وجيه
مكتبة الدار العربية للكتاب

رحلة في قطار الشعراء



كتبها : أحمد سويلم
رسمها : أحمد وجيه

مكتبة الدار العربية للكتاب

سويلم ، أحمد .
رحلة في قطار الشعراء / أحمد سويلم ؛ رسوم أحمد وجيه
. ـ ط1. ـ القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2009
96 ص ؛ 24 سم
تدمك : 2 ـ 633 ـ 293 ـ 977 ـ 978
1 ـ الشعراء العرب – تراجم الصحية .
أ ـ وجيه أحمد (رسام) .
ب ـ العنوان . 928.1
©
مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
رقم الإيداع : 15229 / 2009
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : شعبان 1430هـ ـ أغسطس 2009م
الإخراج الفني: صلاح بيصار

تمهيد

أعترفُ لكَ يا صَديقي الشَّابَّ أن الشعرَ يجيءُ اليومَ في مَرْتبةٍ تاليةٍ لعددٍ كبيرٍ من وَسائلِ الإعْلامِ والمعْرفةِ.. معَ أنَّ الأمةَ العربيةَ مَعْروفةٌ بأنها أمةٌ شاعرةٌ.. والشعرُ هو ديوانُ العربِ وَسجلُّ أَحْداثِهم وَحَياتِهم.. وَربَّما تَقرأُ قَصيدةً لشاعرٍ فتكفُّ عن قِراءتِه لأنها لَمْ تَعْجبكَ.. وَرُبما يَحدثُ العَكْسُ فَتقرأُ قِصَّةَ حياةِ أحدِ الشُّعراءِ، فَيدفعكَ ذلك إلى قِراءةِ أشْعارِهِ لأنَّ حياتَهُ جذَبتْكَ بما فيها من أَحْداثٍ..

لَقدْ فَكَّرنا أن نُقدمَ لكَ عَددًا من الشُّعراءِ المعاصِرينَ - رُبَّما بَعْضُهم قد تَعرَّفت عليهِ في كُتُبِ الدِّراسةِ - لكنْ بِأُسلوبٍ مُختلفٍ.. حَرَصْنا فيهِ ألَّا يكونَ جافًّا جامِدًا يُنفرِّك من مُواصلةِ القِراءةِ.

لَقَدْ تخيَّلْنا أنَّ هُناكَ قِطارًا مميزًا يركبُه الشُّعراءُ.. وكلٌّ مِنْهم يتَّخِذُ مَقْعدَه الخاصَّ الَّذي لا يشارِكُه أحدٌ فيهِ.. حتَّى يستطِيعَ أن يُمارِسَ هِوايتَه في التأَمُّلِ أو القِراءةِ أَوْ حتَّى الكِتابةِ..

ثُمَّ هَا نَحْنُ نضربُ مواعيدَ معَ كلِّ هؤلاءِ الشُّعراءِ.. ونُسْرِعُ بلقاءِ كلِّ شاعرٍ علَى حدةٍ.. فنَصِفُ حالتَه العامّةَ والخاصّةَ حينما نَلْتقِي به.. ثُمَّ نبدأُ حِوارًا طَريفًا، نتعرَّف مِنْ خِلالِه حَياتَه الخاصَّة وكيفَ أثَّرتْ في كونِه شاعِرًا.. ثُمَّ نستمِعُ فيهِ

إلى بعْض نماذِجَ جميلةٍ مِنْ شِعْرِه.. ونثيرُ معَه بعضَ القَضايا المتعلقة بالشِّعرِ.. وبِهذا نظنُّ أنَّنا نَخْرجُ منْ قِراءةِ كلِّ شاعرٍ بفكْرةٍ غيرَ مَنْقوصةٍ عَنْ هذا الشَّاعرِ.. وحينَما نقرأُ لَه نماذجَه الجميلةَ، يدفعُنا ذلِك إلى العَوْدةِ لِديوانهِ المنْشورِ، فنقرأُ لَه المزيدَ مِنْ أشْعارِه..

إنَّنا نهدِفُ مِنْ هذا الكتابِ أن نقرِّبكَ للشِّعرِ.. ونقرِّبَ الشِّعرَ إليكَ.. وتتذوَّقَ جمالياتِ القَصيدةِ، دُونَ أَنْ نَفْرضَ نحنُ عليْكَ أسلوبًا لهذا التذوقِ.. فنحنُ نعترفُ لكَ بحرِّيتِك في التذوقِ.. ورأْيِك في الشَّاعرِ.. وحُبِّك أو عدَمِ قَبُولك لَه.. المهمُّ أنَّك سوفَ تخرجُ مِنْ هذا الكتابِ بشيءٍ مفيدٍ، هوَ أنَّ هؤلاءِ الشُّعراءَ قَدْ تعبُوا وأبْدعُوا وتَركوا لنَا تُراثًا فنيًّا جميلاً، يمكنُنا أنْ نقرأَه ونستعيدَه بحبٍّ وتقْدير.

ولَمْ نَشَأْ أن نُطيلَ عليكَ في تقديمِ الشُّعراءِ.. وإنَّما نحْنُ نضعُ أيدِينا - قدْرَ الإمْكانِ - علَى أبْرزِ عَلاماتِ حياةِ الشَّاعرِ.. ونَنْطَلقُ مِنْها إلى أجملِ أشْعارِه.. ونفْتحُ شهيَّتك إلى مَزِيدٍ مِنَ القِراءةِ حَوْلَ هذا الشَّاعرِ وقَصائده..

نتمنَّى يا صديقَنا أن نكونَ قَدْ نجَحْنا في جَذْبِك إلى ساحةِ الشِّعرِ.. فرُبَّما حِينَ تحبُّ الشِّعرَ.. أنْ تكونَ في الغَدِ القريبِ شاعِرًا مُبْدعًا مِثْلَ هؤلاءِ العُظَماءِ من شُعَرائنا المعاصرينَ.

أحمد سويلم

دَعْـوَةٌ

أَرْجُو أن تقْبَلَ دعوتَنا لِنُسافرَ معًا عبرَ الزَّمنِ في قطارِ أشهرِ الشُّعراءِ العربِ المعاصرينَ..

أمَّا نحنُ فسوفَ نُدِيرُ مَعَ كُلِّ شاعرٍ حِوارًا نعرفُ مِنْ خلالهِ قِصَّةَ حياتِهِ.. وأجْمَلَ ما كتَبَ مِنْ أشعارٍ..

وسَوْفَ تُدْرِكُ أن بعضَ الشُّعراءِ قَدْ غَابوا ولَمْ يصعدوا القِطارَ.. رُبَّما لمشاغِلِهِمُ الخاصَّةِ.. أَوْ لأنَّهم يخشَوْن أن يعرفَ النَّاسُ عَنْهم أسرارَهم.. لَكِنَّنا سوفَ نبحثُ عَنْهم في لِقاءاتٍ قادمةٍ.. ونقدِّمُهم لكَ..

تفضَّلْ يا صديقَنا الشَاب.. لِنُقابِلَ معًا هؤلاءِ الشُّعراءَ في قطارِهم، الَّذي لا يتوقفُ إلاَّ في محطَّاتٍ شِعْريةٍ بعَيْنِها..



أَحْمَد شَوْقِي

كانَ يجلسُ على مقْعده في صورتهِ المألوفةِ.. يسنِدُ رأسَه إلى قبضةِ يدهِ اليمنى.. ويلْبسُ بذلةً أنيقةً.. أمَّا ربْطةُ العُنقِ.. فهِيَ الربطةُ الإفْرَنْجِيَّةُ الَّتي نَراها في المُناسباتِ الرَّسْميةِ.. مِثْلَ الأفْراحِ والمأتِمِ..

اقتَرَبْنا مِنْه بحذرٍ.. خَشْيةَ أن يكونَ غارِقًا في بحرِ قصيدةٍ جديدةٍ.

تنبَّهَ لوجودِنا، أنْزلَ قبضتَه مِنْ على خدِّه.. حيَّانا ورحَّبَ بِنا.

قلْتُ: حينَما أجلسُ إلى أميرِ الشُّعراءِ.. فأنَا أمامَ قلْعةٍ من الشِّعرِ.. وتاريخٍ من الإبْداعِ والعطاءِ..

قالَ: شُكرًا يا وَلَدي.. فلَوْلا فَضْلُ اللهِ علَيَّ.. واجْتِهادِي وإخْلَاصي للشِّعرِ ما رأَيْتني كَذَلِك..

قلتُ: نحنُ في شَوْقٍ لمعرفةِ مَسيرتِك باختصارٍ يا سيِّدي..

قالَ: أنا لأَبٍ يَنْتَسِبُ إلى عائلةٍ تُرْكيَّةٍ.. ووُلِدْتُ في حَيِّ الحنَفِيِّ بالقاهرةِ في

16 أكتوبر عامَ 1870.. ومِثْل أطفالِ جيلي، التحقْتُ بمكتبِ الشَّيخ صالح، ثُمَّ دخَلْتُ مدرسةَ المبتديانِ في السَّادسةِ من عُمْرِي، ثُمَّ المدرسةَ الخَدِيوِيَّةَ.. ثُمَّ مدرسةَ الحُقوقِ قِسْمَ التَّرْجَمةِ..

قلتُ: وماذا عَنْ موهبتِك الشِّعريةِ يا سِّيدي ؟

قالَ: ظهَرَتْ هذه الموْهبةُ وأنَا صغيرٌ بالمدارسِ.. وبدأْتُ أنْشُرُ في الصُّحفِ والمجلاتِ وأنا شابٌ.. وفي عام 1890 أرسلَنِي الخِدِيوي توفيقُ في بَعثَةٍ إلى فَرَنْسا.. وهُنَاك درسْتُ الحقوقَ والآدابَ في جامعةِ باريسَ.. واتصلْتُ في هذه الفترةِ بالزعيم مُصْطفَى كاملِ.. وَفِي عام 1894 شاركْتُ في مؤتمرِ المُسْتَشْرِقِينَ في جنِيفَ، وأَلْقَيْتُ فِيها مَلْحَمَةَ (كِبارِ الحَوادِثِ فِي وَادِي النِّيلِ).

قلْتُ: وماذا قلْتَ فِيها يا سِّيدي ؟

قالَ:

هَمَّــتِ الْفُـلْكُ واحْـتَوَاهَـا الْمَاءُ ... وحَدَاهَا بِمَنْ تُقِلُّ الرَّجَاءُ
ضَرَبَ البَحْرُ ذُو العُبَـابِ حَوَالَيْـ ... ـهَا سَمَاءً قَدْ أكبرَتْها السَّمَاءُ
وَجِبَالًا موائجًــا فِــي جِــبَالٍ ... تَتَــدَجَّى كَـأَنَّـها الظَّلْمَاءُ
لُجَّةٌ عِنْـدَ لُجَّــةٍ عِــنْدَ أُخْـــرَى ... كَهِضَــابٍ مَاجَــتْ بِهَا البَيْداءُ
رَبِّ إِنْ شِـئْتَ فَالفَضَــاءُ مَضِيــقٌ ... وَإِذَا شِـئْتَ فالْمَضِيقُ فَضَاءُ
فَاجْعَلِ الْبَحْرَ عِصْمَةً وَابْعَثِ الرَّ ... حْـمَةَ فِيــهَا الرِّيَاحُ والأَنْـوَاءُ

أَنْـتَ أُنْسٌ لَــنَا إِذَا بَعُــدَ الأُ نْـسُ وَأَنْـتَ الْحَيَاةُ وَالإِحْيَاءُ
قُــلْ لبــانٍ بَنَى فَشــادَ فغـالى لَمْ يَجُزْ مِصرَ فِـي الزَّمَانِ بِنَاءُ
أَجْفَلَ الْجِـنُّ عَنْ عَزَائِـم فِرْعَـوْ نَ وَدَانَــتْ لِبَأْسِــهَا الْآنَــاءُ
شَــادَ مَـا لَـمْ يَشِـدْ زَمَــانٌ وَلاَ أَنْشَـأَ عَصْرٌ.. وَلاَ بَنَـى بَنَّـاءُ

قلْتُ: يقولُ النُّقَّادُ عَنْك: إنَّك نقلْتَ الشِّعرَ فنيًّا من مستوًى تقليديٍّ قَديم إلى مُسْتوًى مُعاصرٍ.. بحيثُ لا يوجدُ من يبلغُ حسنَ الصياغةِ والسبكِ أكْثرَ منْك..

قالَ: يا بُنيَّ هُمْ يُبالغونَ.. وأنا لَمْ أَسُدَّ الطَّريقَ أمامَ أيِّ شاعرٍ يُريدُ الإبْداعَ الأصيلَ.. وقَدْ كنْتُ أنا وَحافظ صَديقَيْن في هذا المجالِ.. ثُمَّ بَعْد ذلك تعدَّدَتْ مدارسُ التجديدِ.. وأنا لسْتُ ضِدَّ التجديدِ بحيثُ يكونُ في إطارِ الفنِّ.

قلْتُ: تعدَّدَتْ أغْراضُ الإبداعِ عِنْدَك في شَوْقِيَّاتك ذاتِ الأجْزاءِ الأربعةِ..

قالَ: نَعَمْ.. نعمْ.. كتبْتُ قصائدَ وطنيةً وسياسيةً وتاريخيةً وغَزَليةً ووصْفيةً.. وكتبْتُ في مناسباتٍ كثيرةٍ.

قلْتُ: لَقَدْ غنَّتْ أمُّ كلْثُومَ لَكَ نهجَ البُرْدَة.. ووُلِد الْهُدَى.. وغَيْرَهُما..

قالَ: لَيْتَني كنْتُ حيًّا حينَما غنَّتْ، لكنْتُ استمتعْتُ كَما سَعِدَ غَيْرِي بهذه القصَائدِ المغنَّاة..

قلتُ: نستمتعُ نحنُ بالاستماعِ إليكَ يا سيِّدي..


InK

قلتُ: لَكَ أيضًا قصائدُ تتناولُ فِيها سِيرَةَ العُظَماءِ..

قـالَ: كنْتُ حَرِيصًا حينَمـا يرحـلُ عنَّا عظيمٌ أو قائدٌ.. أن أُسَطِّرَ سيرتَه في قصيدةٍ، وكانَ هَدَفي مِن ذلكَ أن أُبَيِّنَ للناسِ ماذا قدَّمَ هذا الزَّعيمُ أَوْ هذا القائدُ إلى الوطَنِ من أعمالٍ.. فمَثَلاً كتبْتُ في الذِّكْرَى السابِعةَ عَشْرَةَ للزَّعيم مُصْطَفى كامِلٍ قصيدةً، أَتَناولُ فِيها ما أصابَ البِلادَ مِنَ انْقِسَامٍ بَعْدَ رحيلِه.. فأقولُ:

إلاَمَ الخلْفُ بَيْنَكُمْ إلامَـــــا ... وَهَذي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى عَلاَمَا

وَفِيـمَ الْكَـيْدُ بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ ... وَتُبْدُونَ الْعَدَاوَةَ وَالْخِصَامَا

وقلت فيها أيضًا:

تَرَامَيْتُمْ فَقَالَ النَّـاسُ.. قَـوْمٌ ... إلَى الْخِذْلاَنِ أَمْرُهُمُ تَرَامَى

وَكَـانَتْ مِصْـرُ أَوَّلَ مَنْ أَصَـبْتُمْ ... فَلَمْ تُحْصِ الْجِرَاحَ وَلاَ الكِلاَمَا(1)

بِكَ الْوَطَنِيَّةُ اعْتَدَلَـتْ وَكَـانَتْ ... حَـدِيثًا مِنْ خُـرَافَةٍ أَوْ مَنَامَـا

بَنَيْتَ قَضِيَّـةَ الأَوْطَـانِ مِنْـهَا ... وَصَيَّرْتَ الْجَلاَءَ لَهَا دِعَامَا

هَـزَزْتَ بَنِي الزَّمَـانِ بِهِ صَـبِيّا ... ورعتَ بِهِ بَنِي الدُّنْيَا غُلاَمَا

قُلْتُ: حسَنًا يا سَيِّدي.. وتناولْتَ أحداثَ الوطنِ الكبيرةَ..

---

(1) الكِلام: الجروح.

قالَ: أَنَا تقريبًا لَمْ أترك حَدثًا جَرَى في مصرَ أَوْ في تُرْكيا، إلَّا وكتبْتُ فِيه.

قلْتُ: وكتبْتَ أيضًا عنْ عَظمَةِ مصرَ وآثارِها.. ولَكَ قصيدةٌ جميلةٌ عَنِ النِّيلِ.

قالَ: لاَ تَنْسَ يا وَلدي أنَّني مِصْريٌّ قَبْلَ أن يكونَ أَبي تُرْكيًّا.. أَيْ إنَّني عشْتُ على ضِفافِ النِّيل.. وَبْيتِي كرمةُ ابنِ هانئ يجْعلُني أُلْقِي تَحيَّةَ الصباحِ كلَّ يومٍ على هذا النَّهرِ الجميلِ.. وأقولُ:

مِنْ أيِّ عَـهْدٍ فِي الْقُـرَى تَتَـدَفَّقُ وَبِأَيِّ كَفٍّ فِي الْمَدَائِنِ تُغْدِقُ
وَمِنَ السَّمَاءِ نَزَلْتَ أَمْ فُجِّـرْتَ مِنْ عُلْيَا الْجِنَانِ جَدَاوِلًا تَتَرَقْرَقُ
وَبِـأَيِّ نَـولٍ أَنْـتَ نَاسِـجُ بُـرْدَةٍ لِلضِّفَّتَيْنِ جَدِيدُهَا لاَ يَخْلَقُ
يَتَقَبَّـلُ الْـوَادِي الْحَـيَاةَ كَـرِيمَةً مِنْ رَاحَتَيْكَ عَمِيمَةً تَتَدَفَّقُ
أَصْلُ الْحَضَارَةِ فِي صَعِيدِكَ ثَابِتٌ وَبُنَاتُهَا حَسَنٌ عَلَيْكَ مُخَلَّقُ
وُلِدَتْ فَكُنْتَ الْمَهْدَ ثُمَّ تَرَعْرَعَـتَ فَأَظَلَّهَا مِنْكَ الحَفِيُّ المشفِقُ
يَا نِيلُ أَنْتَ بِطيبِ ما نَعتَ الهُدَى وَبِمدْحَةِ........ أَحْرَى أَخْلَقُ
لِي فِيكَ مَدْحٌ لَيْـسَ فِيـه تَكَـلُّفٌ أَمْلاهُ حُبٌّ لَيْسَ فِيهِ تَمَلُّقُ
فَاحْفَظْ وَدَائِعَكَ الَّتِي اسْتُودِعْـتَهَا أَنْتَ الْوَفِيُّ إِذَا ائْتُمِنْتَ الأَصْدَقُ

قلْتُ: وقَدْ تغنَّتْ بِها أيضًا أُمُّ كلثوم يا سيِّدي..

قالَ: أُمُّ كلثومَ لَمْ تُغَنِّ لي في حَياتي قصيدةً واحدةً.. وأظنُّ أنَّها أيضًا ساعدَتِ الناسَ على قراءةِ أشْعارِي حينَما غنَّتْ لي..

قلْتُ: وكَما كتبْتَ عَنِ النِّيل.. كتبْتَ عَنِ الأهْرامِ وَتُوتْ عَنْخ آمُونَ.. وعَنْ أبي الهُول..

قالَ: أبو الهُول رمزٌ للجبروتِ والعظَمةِ.. وهوَ معجزةُ الفراعنةِ التَّي تُبْهرُ العيونَ وتحيِّرُ العقولَ.

قلْتَ: أريدُ أن أسمعَ مِنْك شيئًا من هذه القصيدةِ..

قالَ:

أَبَا الْهولِ طَالَ عَلَيْكَ العُصُرْ ... وَبُلِّغْتَ فِي الْأَرْضِ أَقْصَى العُمُرْ
فَيَا لِـدَةَ الدَّهْـرِ لاَ الدَّهْرُ شَبَّ ... وَلاَ أَنْتَ جَـاوَزْتَ حَـدَّ الصِّغَرْ
إِلاَمَ رُكُـوبُكَ مَتْنَ الرِّمَـالِ ... لِطَيِّ الأَصِيلِ.. وجَوْبِ السَّحَرْ
تُسَافِـرُ مُنْتَقِـلاً فِي الْقُـرُونِ ... فَـأَيَّـانَ تُلْـقِـي غُـبَارَ السَّـفَرْ
أَبَا الهـولِ مَا أَنْتَ فِي الْمُعْضِلاَ ... تِ لَقَدْ ضَلَّتِ السُّبْلَ فِيكَ الفِكَرْ
تَحَيَّـرَتِ الْبَـدْوُ مَـاذَا تَـكُونُ ... وَضلَّتْ بِـوَادِي الظُّنُونِ الحَـضَـرْ
أَبَا الهولِ أَنْتَ نَـدِيمُ الزَّمَـانِ ... نَجِـيُّ الأَوَانِ سَـمِـيـرُ الْعُـصُرْ

بَسَطْتَ ذِرَاعَيْكَ مِنْ آدمٍ وَوَلَّيْتَ وَجْهَكَ شَطْرَ الزُّمَرْ
تُطِلُّ عَلَى عَالَمٍ يَسْتَهِلُّ وَتُوفِي عَلَى عَالَمٍ يُحْتَضَرْ
فَحَدِّثْ فَقَدْ يُهْتَدَى بِالْحَدِيثِ وخَبِّرْ فقَدْ يُؤْتَسَى بِالْخَبَرْ
تَحَرَّكْ أَبَا الهولِ هَذَا الزَّمَانُ تَحَرَّكَ مَا فِيهِ حَتَّى الحَجَرْ..

قلْتُ: إلى جانبِ هذه القصائِد، أنْتَ كتبْتَ عِدَّةَ مسرحياتٍ..

قالَ: في بعضِ الموضوعاتِ.. لَمْ أجدِ القصيدَة كافيةً، فلَجَأْتُ إلى كتابةِ أعمالٍ مسرحيةٍ مُرَكَّبةٍ.. وَلِي عدةُ مسرحياتٍ، أهمُّها: عَنْتَرَةُ.. مَجْنُونُ لَيْلَى.. مَصْرَعُ كلْيُوبَاتْرَا.. قَمْبِيزُ.. السِّت هُدَى.. وغيرها.

قلْتُ: وكتبْتَ أيضًا للأطْفالِ..

ضَحِكَ شاعرُنا الكبيرُ، وقالَ:

في أثناءِ وجودي في فَرَنْسَا.. قرأْتُ الأدبَ الفَرنسي.. وأعجبْتُ بالأديبِ الشاعرِ لافُونْتينَ في حِكاياتِه على ألْسِنَةِ الحيواناتِ.. وتذكّرْتُ كَليلَةَ وَدِمْنَةَ.. ورأيْتُه متأثرًا بِها.. وبغيرِها من التراثِ الإنسانيِّ.. فبدأْتُ أَنْظِمُ حِكاياتٍ على نظامٍ وأسلوبِ لافونتينَ، ثم أجمعُ أطفالَ المصريينَ الَّذين يعيشُون في فرنسا وأقرأُ لهم هذه الحكاياتِ المنظومةَ..

قلْتُ: ألَيْسَ غريبًا على أميرِ الشُّعراءِ أَنْ يكْتُبَ للأطفالِ !!

قالَ: كلُّ شاعرٍ مُبْدعٍ في داخلِه طفلٌ.. وقَدِ استفدْتُ جِدًّا من هذه التجربةِ..

قلْتُ: نريدُ أن نختمَ لقاءنا بنموذجٍ من أشعارِك للأطفالِ..

قالَ: مَثَلاً حكَيْتُ قِصَّةَ الفِيلِ الَّذي كانَ يهدِّدُ حياةَ الأرانبِ حتَّى حَفَرُوا له حُفْرَة فوقعَ فيها.. قلْتُ:

يَحْكُونَ أَنَّ أمَّةَ الأَرَانِبِ قَدْ أَخَذَتْ مِنَ الثَّرَى بِجَانِبِ
وَابْتَهَجَتْ بِالْوَطَنِ الْكَرِيمِ وَموْئِلِ الْعِيَالِ وَالْحَرِيمِ
فَاخْتَارَهُ الْفِيلُ لَهُ طَرِيقَا مُمَزِّقًا أَصْحَابَنَا تَمْزِيقَا
وَكَانَ فِيهِمْ أَرْنَبٌ لَبِيبٌ أَذْهَبَ كُلَّ صُوفِهِ التَّجْرِيبُ
نَادَى بِهِمْ يَا مَعْشَرَ الأَرَانِبِ مِنْ عَالِمٍ وَشَاعِرٍ وَكَاتِبِ
اتَّحِدُوا ضِدَّ الْعَدُوِّ الْجَافِي فَالاتِّحَادُ قُوَّةُ الضِّعَافِ

وهَكَذا إلى نهايةِ القصَّةِ..

قلْتُ: لقَدْ بَايَعَكَ الشُّعراءُ أميرًا للشِّعرِ في أبْرِيلَ 1927، وإنَّكَ تستحقُّ حقًّا هذا اللَّقَبَ يا سِّيدي.. شُكْرًا لك على حُسْنِ استقبالِك..

قامَ شاعرُنا وحيَّانا.. وانْصَرَفْنَا.

أبو القاسمِ الشابي

رَأَيْناه نَحيلَ الجِسْمِ مَديدَ القَامَة، يَقفُ وَوَجْهُهُ إلى نافذةِ القِطارِ.. يتأمَّلُ الطبيعةَ الَّتي تتجلَّى أَمامَه خضراءَ يانعةً..

ثُمَّ هَا هُوَ يجلسُ على مقعدِه.. ويمسكُ بيدِه منطقةَ قلبِه ويتأوَّهُ..

اقترَبْنا مِنْه، وقلْتُ: سلاَمَتكَ يا سيِّدي.. وسلامة قَلْبك..

شَكَرَني.. وقالَ: هو داءُ القلْبِ يا صدِيقي.. ولا بُدَّ أنَّه سوفَ يكتبُ لي نِهايتي..

قلْتُ: مَنَحكَ اللهُ طُولَ العمرِ أيُّها الشاعرُ الجميلُ..

قالَ: كانَ لا بُدَّ لِقَلْبي أن يُصابَ بِأَيِّ داءٍ.. لأنَّه يحْمِلُ أعباءَ كثيرةً ..

قلْتُ مبتسِمًا: هَلْ هي تجربةُ حُبٍّ فاشلةٌ..؟

قالَ: هذه واحدةٌ.. وواحدةٌ أخرى: مَوْتُ أَبِي وَأَنَا فَتًى صغيرٌ.. ثُمَّ مآسٍ كثيرةٌ خاصَّةٌ وعامَّةٌ..

قلْتُ: إذًا دَعْنَا ندخلُ إلى عالَمِك ونضعُ يَدَنا على ملامِحه..

قالَ: وُلِدتُ في عامِ 1909 في بلدة (الشابية) بالجنوبِ التُّونُسِيِّ.. وهي بلدةٌ تنفردُ بالطبيعةِ الساحرةِ.. وعيونِ الماءِ العذْبةِ.. وكانَ أَبِي قَدْ تخرَّجَ في الأزهرِ الشَّريفِ وعملَ قاضيًا.. أمَّا أنا فقدْ حفظْتُ القرآنَ في سنٍّ باكرةٍ.. والتحقْتُ بجامعِ الزَّيْتُونَةِ لدراسةِ اللُّغةِ العربيةِ وآدابِها.. وبدأتُ عِلاَقتِي بالشِّعْرِ قارئًا ومتذوقًا ثُمَّ مُبْدِعًا.. وفي عام 1929 رَحَلَ أَبِي بَعْد صِراعٍ مريرٍ مَعَ المرضِ.. ثم أصبْتُ أنا بداءٍ في القلبِ لازَمَنِي، ولم يتركْني أعيشُ في سلامٍ.

قلْتُ: بعيدًا عن الألمِ الجسديِّ.. ماذا عن قلْبِ الشاعرِ..لا بُدَّ أنَّه يختلفُ عنْ قلوبِ الناسِ العاديِّين.

قالَ: لي قصيدةٌ بعُنوانِ (قَلْبُ الشَّاعرِ) أقولُ فيها:

كُـــلُّ مَـــا هَـــبَّ وَمَـــا دَبَّ وَمَـا نَـامَ أَوْ حَـامَ عَلَى هَـذَا الْوُجُودْ
مِـــنْ طُـيُورٍ وَزُهُـورٍ وَشَـــذًى وَيَنَـابِيعَ..وَأَغْصَـــانٍ تَمِيــدْ
وَبحَـــارٍ وَكُـهُـــــوفٍ وذُرًى وَبَرَاكِـينَ وَوِدْيَـــانٍ وَبِيــدْ
وَضِـــيَاءٍ وَظِـــلاَلٍ وَدُجًـــى وَفُصُـولٍ وَغُيُــومٍ وَرُعُــودْ
وَثُـــلُوجٍ وَضَــبَابٍ عَــابِــرٍ وَأَعَــاصِيرَ وَأَمْطَــارٍ تَجُــودْ
وَتَعَــالِيـــمَ وَدِيــنٍ وَرُؤًى وَأَحَـاسِيسَ وَصَـمْتٍ وَنَشِيدْ

كُـلُّـهَا تَحْـيَا بِقَلْـــبِي حُـــرَّةً غَضَّةَ السِّحْرِ كَأَطْفَالِ الْخُلُودْ
هَا هُنَا فِي قَلْبِيَ الرَّحبِ الْعَميق يَرْقُصُ الْمَوْتُ وَأَطْيَافُ الْوُجُودْ
هَــا هُــنَا تَهْتفُ أَصْـــدَاءُ الْفَنَا هَـا هُـنَا تُعْـزَفُ أَلْحَانُ الْخُلُودْ
هَا هُـنَا تَمْشِي الأَمَانِي وَالْهَوَى وَالأَسَى فِي مَوْكِبٍ فَخمِ النَّشِيدْ

هذا هو قلْبُ الشَّاعرِ يَا صديقي.. فيهِ كلُّ العالمِ بمتناقضاتهِ.. بجمالهِ وقُبْحهِ بفرحِه وحزنهِ.. هو إذًا عبءٌ شديدٌ كما تَرى..

قلْتُ: وَمَعَ ذلك فقدْ كنْتَ مِثَالاً للتحدِّي معَ الحياةِ..

قـــالَ: لا بُدَّ أن يكـوَن الشَّـــاعرُ هــكذا فارِسًا مُقاومًا وليْسَ مستسلمًا أو مهزومًا أمامَ الحياةِ.. حتَّى في أصعبِ المواقفِ هو يشْكُو لَكِنْ لا يفقدُ العزيمةَ.

إِنَّ الْحَـــيَاةَ صِـــرَاعٌ فِيهَا الضَّعِيفُ يُدَاسْ
مَا فَــازَ فِي مَاضغيهَا إِلاَّ شَــدِيدُ الْمـرَاسْ
الْكَــوْنُ كَـوْنُ شَـقَاءِ الْكَــوْنُ كَوْنُ الْتبَاسْ
الْكَوْنُ كَوْنُ اخْـتِلاَقٍ وَضَجَّـــةٍ وَاخْـتِلاَسْ
سِيَّانِ عِنْدِيَ فِيهِ الْـ سُّـــرُورُ والاِبْتِئَــاسْ

ليسَ معنَى ذلكَ أنَّني لا أحسُّ بما فيهِ مِنْ جمالٍ.. لكنَّها نظرةٌ واقعيةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ..

قلْتُ: أعرفُ أنَّ لك تجربةَ حُبٍّ فاشلةً في صِبَاكَ.. جَعَلَتْكَ بَعْدَ ذلك تخْشَى التجربةَ.. حتَّى إنَّك رَضِيتَ أن تتزوجَ إرضاءً لأَبِيك وأهلِك .. ماذا تقولُ بعدَ هذه الحياةِ الحافلةِ عن الحبِّ ؟!

قالَ:

أَيُّهَــا الْحُــبُّ أَنْتَ سِرُّ بَلاَئِي　　وَهُــمُــومِي وَرَوْعَــتِي وَعَنَـائِي
وَنُحُــولِي وَأَدْمُعِــي وَعَــذَابِي　　وَسَقَــامِي وَلَــوْعَتِي وَشَـقَائِي
أَيُّهَا الْحُبُّ أَنْـتَ سِـرُّ وُجُــودِي　　وَحَــيَاتِــي وَعِــزَّتِي وَإِبَــائِــي
وَشُــعَاعِي مَا بَيْنَ دَيْجُورِ دَهْرِي　　وَأَلِيــفِي وَقُــرَّتِــي وَرَجَــائِــي
يَا سُلاَفَ الْفُــؤَادِ ياسُمَّ نَفْسِي　　فِي حَــيَاتِي يَا شِدَّتِي يَا رَخَائِي
أَيُّهَا الْحُبُّ قَدْ جَرَعْتُ بِـكَ الْحُزْ　　نَ كُئُوسًــا وَمَـا اقْتَنَصْتُ ابْتِغَائِي
فَبِحَقِّ الْجَـمَالِ يَا أَيُّـهَا الْحُــبُّ　　حَنَانَيْــكَ بِــي وَهَوِّنْ بَلائِــي
لَيْتَ شِعْرِي يَا أَيُّهَا الْحُبُّ قُلْ لِي　　مِنْ ظَـلاَمٍ خُلِقْتَ أَمْ مِـنْ ضِـيَاءِ

قلْتُ: بالتأكيدِ إنَّه خُلِقَ مِنْ ضياءٍ يا سَّيدي..

قالَ: الحبُّ هو مقابلُ الحياةِ نفسِها.. ولأنَّ الحياةَ تتضمنُ كلَّ شيءٍ؛ فالحبُّ كذلكَ.

قلْتُ: ولِهذا نجدُ الحزْنَ دائمًا ذا نَغمةٍ عاليةٍ في أشعارِك.



ابْتَسَمَ وقالَ: الحزْنُ أصِيلٌ في خَلْقِ الإنسانِ.. حينَما يُولَد لابُدَّ أنْ يَبْكِيَ، وحينَما يموتُ نَبْكِي عَلَيه.. أليسَ كذلك !!

قلْتُ: لَكِنْ عَلَيْنا أن نقاومَ الحزنَ.. حتَّى لا يغلقَ علَيْنا حياتَنا..

قالَ: أنَا معَكَ.. فالحزنُ لا بُدَّ أنْ يكونَ شفَّافًا إيجابيًّا.. ولا يدعُو إلى اليأْسِ، ولذلك يرتبطُ الحزنُ بالأمانيِّ والأحلامِ.. فنحْنُ نحْزنُ حينَما لا نستطيعُ أن نحقِّقَ أحلامَنا.. وفي ذلك أقولُ:

لَيْتَ لِي أَنْ أَعِيشَ فِي هَذِهِ الدُّ ... نْيَا سَعِيدًا بِوِحْدَتِي وَانْفِرَادِي

أَصْرِفُ الْعُمْرَ فِي الْجِبَالِ وَفِي الغَابَا ... تِ بَيْنَ الصَّنَوْبَرِ الْمَيَّادِ

لَيْسَ لِي مِنْ شَوَاغِلِ الْعَيْشِ مَا ... يَصْرِفُ نَفْسِي عَنْ اسْتِمَاعِ فُؤَادِي

أَرْقُبُ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ وَأُصْغِي ... لِحَدِيثِ الآزَالِ وَالآبَادِ

وأُغَنِّي مَعَ الْبَلابِلِ فِي الغَا ... بِ وَأُصْغِي إِلَى خَرِيرِ الْوَادِي

وَأنَاجِي النُّجُومَ وَالْفَجْرَ وَالأَطْيَـ ... ـارَ وَالنَّهْرَ وَالضِّيَاءَ الْهَادِي

عِيْشَةٌ لِلْجَمَالِ وَالْفَنِّ أَبْنِيهَا ... بَعِيدًا عَنْ أمَّتِي وَبِلادِي

قلْتُ: ومَاذا قلت من الشعر عن أمَّتك وبلادك ؟

قالَ: كثيرًا ما كتبْتُ أحفِّزُ أمَّتي وبلادي علَى النُّهوضِ، ورَفْضِ الاستسلامِ، لكنَّها لم تفعلْ..

قلْتُ: وماذا قلْتَ يا سيِّدي ؟

قالَ:

أيُّهَا الشَّعْبُ لَيْتَنِي كُنْتُ حَطَّا ... بًا فَأَهْوِي عَلَى الْجُذوعِ بِفَأْسِي

لَيْتَنِي كُنْتُ كَالسُّيُولِ إِذَا سَا ... لَتْ تَهُدُّ الْقُبُورَ رَمْسًا بِرَمْسِ

لَيْتَنِي كُنْتُ كَالرِّيَاحِ فَأَطْوِي ... كُلَّ مَا يَخْنُقُ الزُّهُورَ بِنَحْسِي

لَيْتَ لِي قُوَّةَ الْعَوَاصِفِ يَا ... شَعْبِي فَأُلْقِي إِلَيْكَ ثَوْرَةَ نَفْسِي

أنْتَ رُوحٌ غَبِيَّةٌ تَكْرَهُ النُّو ... رَ وَتَقْضِي الدُّهُورَ فِي لَيْلِ مَلْسِ

فِي صَبَاحِ الْحَيَاةِ ضَمَّخْتُ أَكْوَابِي ... وَأَتْرعتُهَا بِخَمْرَةِ نَفْسِي

ثُمَّ قَدَّمْتُهَا إِلَيْكَ فَأَهْرَقْتَ ... رَحِيقِي وَدُسْتَ يَا شَعْبُ كَأْسِي

فَتَأَلَّمْتُ ثُمَّ أَسْكَتُّ آلاَ ... مِي وَكَفْكَفْتُ مِنْ شُعُورِي وَحِسِّي

ثُمَّ نَضَّدْتُ مِنْ أَزَاهِيرِ قَلْبِي ... بَاقَةً لَمْ يَمَسَّهَا أَيُّ إِنْسِي

ثُمَّ قَدَّمْتُهَا إِلَيْكَ فَمَزَّقْتَ ... وُرُودِي وَدُسْتَهَا أَيَّ دَوْسِ

ثُمَّ أَلْبَسْتَنِي مِنَ الْحُزْنِ ثَوْبًا ... وَبِشَوْكِ الْجِبَالِ تَوَّجْتَ رَأْسِي

قلْتُ: وَلكَ أيضًا قصيدةٌ مشهورةٌ فِي الوطنيةِ كذلِكَ، هِيَ (إرادةُ الحياةِ).

قالَ: نَعَمْ.. نعمْ.. وَأَنا أَرَى أنَّ أَيَّ شعْبٍ لَيْسَ لَه إرادةٌ، لَنْ يستطيعَ أن يحصُلَ

علَى حُقوقِه.. ولِهذا قلْتُ:

إِذَا الشَّعْبُ يَوماً أَرَادَ الْحَيَاةَ ... فَلاَ بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ الْقَدَرْ
وَلاَ بُدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِي ... وَلاَ بُدَّ لِلْقَيدِ أَنْ يَنْكَسِرْ
وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الحَيَاةِ ... تَبَخَّرَ فِي جَوِّهَا وَانْدَثَرْ
فَوَيْلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْهُ الْحَيَاةُ ... مِنْ صَفْعَةِ الْعَدَمِ الْمُنْتَصِرْ
كَذَلِكَ قَالَتْ لِيَ الْكَائِنَاتُ ... وَحَدَّثَنِي روحُهَا الْمُسْتَتِرْ

قلْتُ: وَمَعَ ذلكَ يا سيِّدي لكَ قصائدُ أخْرى، كأنَّها تترجمُ جَمالَ الحياةِ وسِحْرَها بعيدًا عن مأساتِك الخاصةِ أو مَأْساةِ شعبِكَ.

قالَ: طبْعًا.. فالشاعرُ أحوالُه متغيرةٌ.. وإحساسه مرهفٌ.. يستطيعُ أنْ يلتقطَ الفرحَ مِنْ جَمالِ زهرةٍ.. ومِنْ طَلْعةِ شمْسٍ.. ولِهذا أقولُ مَثَلاً:

اسْكُنِي يَا جِرَاحْ ... وَاسْكُنِي يَا شُجُونْ
مَاتَ عَهْدُ النُّوَاح ... وَزَمَانُ الْجُنُونْ
وَأَطَلَّ الصَّبَاح ... مِنْ وَرَاءِ القُرُونْ
فِي فِجَاجِ الرَّدَى ... قَدْ دَفنْتُ الأَلَمْ
وَنَثَرْتُ الدُّمُوع ... لِرِيَاحِ العَدَمْ

وَاتَّخَـذْتُ الْحَيَاة مِعْـزَفًـا لِلنَّغَـمْ

أَتَغَـنَّى عَلَيْـه فِي رِحَـابِ الزَّمَـانْ

قلْتُ: إنَّها تصلحُ للغِناءِ يا سيدي..

قالَ: لأنَّها نابعةٌ منَ القلبِ يا صديقي.. دعْني أسمعُكَ قصيدةً أخْرى بعنوانِ (تحتَ الغُصونِ) أقولُ فيها:

هَا هُنَا فِي خَمَائِلِ الغَابِ تَحْتَ الـزَّانِ والسِّنْـدِيَـانِ وَالـزَّيْتُـونِ

أَنْتِ أَشْـهَى مِـنَ الْحَيَاةِ وَأَبْهَـى مِـنْ جَمَـالِ الطَّبِيعَـةِ الْمَيْمُـونِ

مَا أَرَقَّ الشَّبَابَ فِي جِـسْمِـكِ الغَضِّ وَفِي جِيدِكِ الْبَدِيعِ الثَّمِينِ

وَأَدَقَّ الْجَمَالَ فِي طَـرْفِكِ السَّا هِي وَفِي ثَغْرِكِ الْجَمِيـلِ الْحَزِينِ

وَأَلَذَّ الْحَيَاةَ حِـينَ تُغَـنِّينَ فَـأَصْغِي لِصَـوْتِكِ الْمَـحْزُونِ

فَلِمَـنْ كُنْتِ تُنْشِدِينَ فَقَـالَتْ: لِلضِّيَـاءِ الْبَنَفْسَجِـيِّ الْحَـزِينِ

لِلْمَسَاءِ الْمُطِلِّ لِلشَّفَقِ الدَّاجِي لِسِحْـرِ الأَسَـى وَسِحْـرِ السُّكُونِ

لِلعَبِيرِ الَّـذِي يُرَفْرِفُ فِي الأُفْقِ وَيَفْنَـى مِثْلَ الْمُنَى فِي سُكُـونِ

ثُمَّ رأَيْناه وضعَ يدَه مرةً أخرَى علَى قلْبِه..

فقلْتُ: مَعْذِرَةً يا سيِّدي.. فقدْ أجْهَدْتُك، فقامَ.. وحَيَّانا.. وانصرَفْنا نَدْعو لَه بالشفاءِ.

إيليا أبو ماضي



ظَلِلْنا نبحثُ عَنْه، حتَّى لفتَتْ نَظَرَنا لوحةٌ فنِّيةٌ معلَّقةٌ علَى يمينه لطائرِ نَوْرَسٍ جميلٍ يُحلِّقُ بِجَنَاحيه.. وتحتَ الطائرِ كانَ هذانِ البَيْتان:

وَالَّـــذِي نَفْسُهُ بِغَـيْرِ جَـمَالٍ   لاَ يَرَى فِي الْوُجُودِ شَيْئًا جَمِيلاً
هُـوَ عِبْءٌ عَلَى الْحَـيَاةِ ثَقِيلٌ   مَنْ يَظُنُّ الْحَــيَاةَ عِــبْئًا ثَقِيــلاً

أمَّا هُوَ فقدْ كانَ أنيقَ الملْبَسِ.. يقرأ فِي كتاب باللغةِ الإنجليزية.. قطَعْنا علَيْه خَلوتَه.. وقلْتُ:

- هَلْ لنا في دقائقَ معدودةٍ معَكَ أيهُّا الشاعرُ الكبيرُ ؟

رفَعَ رأسهَ عَنِ الكتابِ، ثُمَّ قالَ:

- أهْلاً بِكمْ.. تفضَّلُوا..

قلْتُ: هَلْ أكونُ متطَفِّلاً لَوْ سألْتُك عَنْ هذا الكتابِ الَّذي تَقْرَؤُه؟

قالَ: إنَّه رُباعيَّاتُ الخَيَّامِ للكاتبِ الإنجليزيِّ فيتزجيرالد، وقدْ ترجمَه عن

الفارسيةِ.. أمَّا أنا فيمكنُك أنْ تقولَ إنَّ قَصِيدتي (الطلاسِمَ) مُستلْهَمةٌ مِنْ رباعياتِ الخيامِ..

قلْتُ: لقَدْ غنَّى عبدُ الوهَّابِ مِنْها بعضَ الأبياتِ..

قالَ: هِيَ قصيدةٌ طويلةٌ جدًّا، تتناولُ حالاتٍ إنسانيةً وكونيةً كثيرةً.

قلْتُ: نحنُ في شوقٍ للاستماعِ إلى بعضِ أبياتِها..

قالَ:

جِئْتُ لاَ أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَلَكِنِّي أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ
وَسَأَبْقَى مَاشِيًا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَبَيْتُ
كَيْفَ جِئْتُ.. كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
لَسْتُ أَدْرِي
أَجَدِيدٌ أَمْ قَدِيمٌ أَنَا فِي هَذَا الْوُجُودْ
هَل أَنَا حُرٌّ طَلِيقٌ أَمْ أَسِيرٌ فِي قُيُودْ
هَلْ أَنَا قَائِدُ نَفْسِي فِي حَيَاتِي أَمْ مَقُودْ
أَتَمَنَّى أَنَّنِي أَدْرِي وَلَكِن..

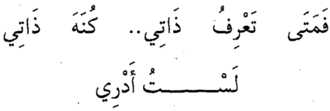
لَسْتُ أَدْرِى

وَطَرِيقِي.. مَا طَرِيقِي أَطَوِيلٌ أَمْ قَصِيرْ
هَلْ أَنَا أَصْعَدُ أَمْ أَهْبِطُ فِيه وَأَغُورْ
أَأَنَا كَالسَّائِرِ فِي الدَّرْبِ أَمِ الدَّرْبُ يَسِيرْ
أَمْ كِلَانَا وَاقِفٌ وَالدَّهْرُ يَجْرِي..

لَسْـــــتُ أَدْرِي



أَنَا لاَ أَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ حَيَاتِي الْمَاضِيَه
أَنَا لاَ أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ حَيَاتِي الآتِيَه



لِيَ ذَاتٌ غَيْر أَنِّي لَسْتُ أَدْرِي مَا هِيَه
فَمَتَى تَعْرِفُ ذَاتِي.. كُنْهَ ذَاتِي

لَسْـــــتُ أَدْرِي

قلْتُ: هذهِ الرؤيةُ النفسيةُ العميقةُ لابدَّ أنَّ وراءَها حياةً حافلةً.. نرِيدُ أنْ نتعرَّفَ ملامحَ هذه الحياةِ يا سيِّدي..

قالَ: وُلِدْتُ في قريةِ (المحيدثة) جنوبَ لُبْنَانَ فى عام 1889.. ثُمَّ رحلْتُ إلى مصر معَ أخِي الأكبرِ لنستقرَّ بالإسكندرية، ونعملَ في تجارةِ الدُّخانِ.. ولَمْ أمْكُثْ كثيرًا في مصر.. لكنَّني استطعْتُ أَنْ أتعرَّفَ على الوسطِ الأدبيِّ

والفكريَّ والصحَفِيَّ وشاركْتُ بالكتابةِ في بعضِ الصحف.. وفي عامِ 1911 ثارَتْ فِي دَاخِلِي الرغبةُ للهجرةِ إلى الولاياتِ المتحدة.. وأنشأْنَا نحنُ شعراءَ المَهْجَرِ (الرابطةَ العلميةَ) برئاسةِ جُبْرَانِ خَلِيلِ جُبْرَانَ.. وَفِي أبريلَ عامَ 1929 أنشأْتُ جريدَة السميرِ بنيويوركَ وقدْ كانَ شعَارُها:

أَنَا لاَ أُهْــدِي إِلَيْكُمْ وَرَقًا غَيْرُكُــمْ يَرْضَــى بِحِبْرٍ وَوَرَق
إِنَّمَا أُهْــدِي إِلَى أَرْوَاحِكُمْ فِكَرًا تَبْقَى إِذَا الطِّرسُ[1] احْتَرَق

قُلْتُ: حدِّثْنا عن أعمالِك الشِّعْريةِ يا سيِّدي..

قالَ: أوَّلُ ديوانٍ لِي طبعْتُه في الإِسكندريةِ عامَ 1911، وهو ديوانُ (تذْكارُ الماضِي)، ثُمَّ بعْدَ هِجْرتي إلى أَمرِيكَا بخمسِ سنواتٍ، نشرْتُ الجزءَ الثانيَ مِنْ ديواني بعنوانِ (ديوانِ إيليا أبو مَاضِي)، وطُبعَ في نيويوركَ عامَ 1916، ويتضمَّنُ مجموعةً من شِعْرِ التأمُّلاتِ والشِّعرِ الوطنيِّ والقَصَص الشِّعْريِّ العاطفيِّ.. وفي عامِ 1927 نشرْتُ ديواني (الجداولَ)، وكتَبَ مقدِّمتَه الشاعرُ ميخائيلُ نُعَيْمَة.. وفي عامِ 1946 أصدرْتُ دِيواني (الخمائلَ).

قلْتُ: لَكِنْ مَا فَلْسَفَتُك في الحياةِ بعْدَ هذه التجربةِ الطويلةِ ؟

قالَ:

أَيُّهَذَا الشَّـاكِـي وَمَـا بِــكَ دَاء كَـيْفَ تَغْـدُو إِذَا غَـدَوْتَ عَلِـيلاَ

(1) الطرس: الورق.

إِنَّ شَرَّ الْجُـــنَاةِ فِي الأَرْضِ نَفْسٌ   تتَوَقَّى قَبْلَ الرَّحِيلِ الرَّحِيلا

وَتَرَى الشَّـوْكَ فِي الْوُرُودِ وَتَعْـمَى   أَنْ تَرَى فَوْقَهَا النَّدَى إِكْلِيلا

وَالَّـــــذِي نَفْسُهُ بِغَـيْرِ جَــمَالٍ   لاَ يَرَى فِي الْوُجُودِ شَيْئًا جَمِيلا

كُـــنْ هَـزَارًا فِي عُـشِّــهِ يَتَـغَنَّى   وَمَـعَ الْكَبْـلِ[1] لاَ يُبَـالِي الْكُبُـولاَ

لاَ غُـرَابًـا يُطَـارِدُ الـدُّودَ فِي الأَ   رْضِ وَبُومًا فِي اللَّيْلِ يَبْكِي الطُّلُولاَ

كُنْ غَـدِيرًا يَسِيرُ فِي الأَرْضِ رَقْرَا   قًا فَيُسْقِي مِنْ جَانِبَيْهِ الْحُقُولاَ

لاَ وِعَـــاءً يُقَـــيِّدُ الْمَــاءَ حَتَّى   تَسْتَحِـيلَ الْمِيَـــاهُ فِيــهِ وُحُــولاَ

كُنْ مَعَ الْفَجْرِ نَسْمَـةً تُوسِـعُ الأَزْ   هَـــارَ شَــمْسًا وَتَـــارَةً تَقْبِـــيلاَ

لاَ سمُومًـــا مِنَ السَّـوَافِي اللَّوَاتِي   تَمْـلأُ الأَرْضَ فِــي الظَّــلاَمِ عَلِيلاَ

وَمَعَ اللَّيْــلِ كَوْكَـبًا يُؤْنِسُ الْغَـــا   بَـــاتِ وَالنَّــهْرَ وَالرُّبَــى وَالسُّهُولاَ

لاَ دُجًــى يَكْــرَهُ الْعَــوَالِـمَ وَالنَّا   سَ فَيُلْقِـــي عَلَى الْجَـمِيعِ سُدُولاَ

أَيُّهَـذَا الشَّـــاكِي وَمَـــا بِـكَ دَاءٌ   كُنْ جَمِيلاً تَــرَى الْوُجُـــودَ جَــمِيلاَ

قلْتَ: أَفْهَمُ مِنْ هذا أنَّ الإنسانَ يستطيعُ أنْ يجمِّلَ الحياةَ ولاَ يلتفتُ إلى قُبْحِها.. وبهذا يمكنُه أن يعيشَ في تفاؤلٍ وحبٍّ..

---

(1) الكبل: القيد.



قالَ: نحنُ الَّذين نصنعُ حياتَنا بأنفسنا.. فإذا كنَّا نمتلكُ الحبَّ.. فالحياةُ جميلةٌ دائمًا.. وإذا فَقَدْناه.. فقَدْنا معَه جَمالَ الحياةِ..

قلْتُ: لَكِنَّ هذِهِ النَّظرةَ لَيْسَتْ كذلك في كلِّ أشعارِك..

قالَ: تقصدُ تأمُّلاتي في الحياةِ.. طبعًا لا بدَّ أنْ تحملَ بعضَ الشَّجَنِ والحزنِ والواقعيةِ.. فمَثَلاً في قصيدتي (الشاعرُ في السَّماءِ) أقولُ:

رَآنِــي اللهُ ذَاتَ يَــــــوْمٍ فِي الأَرْضِ أَبْكِي مِنَ الشَّقَاءْ

فَــرَقَّ واللهُ ذُو حَــــنَانٍ عَلَى ذَوِي الضُّرِّ وَالْعَنَاءْ

وَقَـالَ لَيْسَ التُّــرَابُ دارًا لِلشِّعْرِ فَارْجِعْ إِلَى السَّمَاءْ

ثُمَّ أقولُ:

هَلْ تَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ طَيْرًا فَقُـلْتُ كَــلاَّ وَلاَ غِــــنَاءْ

هَلْ تَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ نَجْمًا أَجَــبْتُ كَــلاَّ وَلاَ بَهَـــاءْ

هَلْ تَبْتَغِي الْمَالَ قُلْتُ كَـلاَّ مَا كَانَ مِنْ مَطْلَبِي الثَّــرَاءْ

وَلاَ قُصُــورًا وَلاَ رِيَـاضًـا وَلاَ جُـــنُودًا وَلاَ إِمَـــاءْ

وَقُلْتُ يَا رَبِّ فَصْـلَ صَيْفٍ فِي أَرْضِ لُبْنَـانَ أَوْ شِــتَاءْ

فَـإِنَّنِي هَـــا هُــنَا غَرِيبٌ وَلَيْــسَ فِي غُـرْبَــةٍ هَنَـاءْ

هُنَا إحساسٌ بالغُرْبةِ جعلَني أحنُّ إلى بَلَدي، وأكشفُ عن جوهرِ إحساسي بالمعاناةِ في بلادِ المَهْجَرِ.. إذًا لسْتُ متفائلاً على الدَّوامِ..

قلْتُ: نريدُ أن نستزيدَ مِنْ تأمُّلاتِك وفَلْسَفَتِك في الحياةِ..

قالَ: إنَّ نَفْسِيَّتِي تجمعُ بين المتناقضاتِ؛ لأنَّ الحياةَ مملوءةٌ بالتناقضاتِ.. الخيرِ والشرِّ.. النُّورِ والظَّلام.. الكَرَم والبُخْلِ.. الحبِّ والكرْه... إلخ. أَحْكِي لَكَ شيئًا.. سألَني أحدُهم يومًا أَنْ أَصِفَ لَه الرجلَ الكريمَ، فقلْتُ:

قَالُوا أَلاَ تَصِفُ الْكَريمَ لَنَا فَقُلْتُ عَلَى الْبَدِيهِ
إِنَّ الْكَرِيمَ لَكَالرَّبِيعِ تُحِبُّهُ لِلْحُسْنِ فِيهِ
وَتَهَشُّ حِينَ لِقَائِهِ وَيَغِيبُ عَنْكَ فَتَشْتَهِيهِ
لاَ يَرْتَضِي أَبَدًا لِصَاحِبِهِ الَّذِي لاَ يَرْتَضِيهِ
وَإِذَا اللَّيَالِي سَاعَفَتْهُ لاَ يُدِلُّ وَلاَ يَتِيهِ
وَتَرَاهُ يَبْسمُ هَازِئًا فِي غَمْرَةِ الْكَرْبِ الْكَرِيهِ
وَإِذَا تَحَرَّقَ حَاسِدُوهُ بَكَى وَرَقَّ لِحَاسِدِيهِ
كَالْوَرْدِ يَنْفَحُ بِالشَّذَى حَتَّى أُنُوفَ السَارِقِيهِ

قلْتُ: إنَّه وَصْفٌ دقيقٌ مشحونٌ بالمعنى والخيالِ يا سيِّدي.. وكما وصفْتَ الكريمَ وصفتَ المغرورَ المتكبِّرَ..

قال: «تقصدُ قَصيدتي (الطِّينَ) طَبْعًا.. فالإنسانُ مَهْمَا تكبَّرَ وأصابَه الغُرورُ، فهو مخلوقٌ من الطِّينِ..

نَسِيَ الطِّينُ سَاعَةً أَنَّهُ طِينٌ حَقِيرٌ فَصَالَ تِيهًا وَعَرْبَدْ
وَكَسَا الْخَزُّ جِسْمَهُ فَتَبَاهَى وَحَوَى الْمَالَ كِيسُهُ فَتَمَرَّدْ
يَا أَخِي لاَ تَمِلْ بِوَجْهِكَ عَنِّي مَا أَنَا فَحْمَةٌ وَلاَ أَنْتَ فَرْقَدْ
أَنْتَ لَمْ تَصْنَعِ الْحَرِيرَ الَّذِي تَلْبَسُ وَاللُّؤْلُؤَ الَّذِي تَتَقَلَّدْ
أَنْتَ لاَ تَأْكُلُ النُّضَارَ إِذا جُعْتَ وَلاَ تَشْرَبُ الجُمَانَ الْمُنَضَّدْ
أَنْتَ فِي الْبُرْدَةِ الْموشاةِ مِثْلِي فِي كِسَائِي الرَّدِيمِ تَشْقَى وَتَسْعَدْ
أَأَمَانِيَّ كُلُّهَا مِنْ تُرَابٍ.. وَأَمَانِيكَ كُلُّهَا مِنْ عَسْجَدْ
وَأَمَانِيَّ كُلُّهَا لِلتَّلاَشِي وَأمَانِيكَ لِلْخُلُودِ الْمُؤَكَّدْ
لاَ..فَهَذِي وَتِلْكَ تَأْتِي وَتَمْضِي كَذَوِيهَا وَأَيُّ شَيْءٍ يُؤَبدْ؟!

وهكذا حتَّى أَصِلَ إلى ذروةِ الـمَعْنى، فأقولُ:

أَيُّها الطِّينُ لَسْتَ أَنْقَى وَأَسْمَى مِنْ تُرَابٍ تدُوسُ أَوْ تَتَوَسَّدْ

قلْتُ: وَقَانَا اللهُ شرَّ الغُرورِ يا سَيِّدي..

قالَ: الغُرْبَةُ يا ولدي تجْعَلُني أحسُّ بقضايا وَطَني وأدرك حَجْمَ ضَررِ الغُرورِ

وَما قَدْ يُحْدِثهُ بِالنَّفْسِ مِنْ أمْراضٍ..

قلْتُ: أنتَ يا سيِّدي تَضربُ بِذلكَ مَثَلاً رائِعًا في التَّواضُعِ..

وشُكْرًا لكَ عَلى هَذا اللِّقاءِ الجميلِ ..».



علي محمود طه



وَجَدْناه يجلسُ على مقعده يُدَنْدِنُ في صوتٍ خافتٍ.. وفي يده سيجارٌ أورُبِّيٌّ، وَقد ارْتَدَى زِيًّا كاملاً أنيقًا.. ووضعَ على رأسه قُبَّعةً فَرنسيةً زاهيةَ اللونِ.. اقترَبْنا منْه بحذَرٍ.. ثُمَّ قلْتُ: هَلْ يَسْمَحْ شاعِرُنا الكبيرُ بِعَشْرِ دقائقَ مِنْ وَقْتِه ؟

قالَ بلغةٍ فرنسيةٍ سليمةٍ ما مَعْناهُ: بكلِّ سرورٍ.. تفضَّلوا..

قلْتُ: لا تؤاخِذْني يا سيِّدي.. فمظهرُك هذا مختلفٌ وجديدٌ علينا..

ضحكَ شاعِرُنا من قلْبِه، وقالَ:

- لَقَدْ عِشْتُ متنقلاً في البلادِ الأوربيةِ فترةً طويلةً مِنْ حَيَاتي بينَ فَرَنْسَا وَإيطَالْيَا وسويسْرَا والنِّمْسَا وغيرها.. وكانَت الطبيعةُ في هذه البلادِ تَسْحرُني.. والجمالُ يأسرُني.. ويمكنُكَ أَنْ تقولَ: إنَّني عشتُ حياةً مُتْرَفَةً.. وقدْ أفادتْنِي هذه الحياةُ فأرْهَفَتْ من إحساسي وانعكَسَتْ في شِعْرِي..

قلْتُ: أَعْلَمُ أنَّك أيضًا عِشْتَ طُفُولَتَك وشبابَك على ضِفَافِ النِّيل بالمنصورةِ..

قالَ: نَعَمْ.. نعمْ.. فقدْ وُلِدْتُ في عام 1902، في هذه البلدةِ المناضلة، التّي أَسَرَتْ لِويسَ التاسعَ حينَما غَزَاها.. وكانَتْ أُسْرَتي على شيءٍ من الثَّراءِ والنِّعمة.. والتحقْتُ بمدرسةِ الفنونِ التطبيقية، وتخرَّجْتُ في عامِ 1924 مهندسًا معماريًّا، وهناك على شاطئِ النِّيلِ التقَيْتُ بأصدقائي الشُّعَرَاءِ: إبراهيم ناجي.. وصالح جودتْ.. والهَمْشَرِيّ وكانَ لـ «صخرةِ الملْتَقَى» أَثَرُها الجميلُ في أشعارِنا..

قلْتُ: ماذا قلْتَ يا سيِّدي في صخرةِ الملْتَقَى ؟

قالَ: قلْتُ:

صَخْـرَةٌ لاَ تُجَـلُّ فِي الْكَائِنَـاتِ غَشِيَتْها جَلاَلَةُ الآبِـدَاتِ
جَاوَرَتْهَا الصَّحْرَاءُ تَسْتَشرِفُ الْيَمَّ وَقَرَّ الْمُحِيطُ جَنْبَ الْفلاَةِ
أَبَدِيَّـانِ قَـدْ أَفَـاءَا إِلَيْـهَا لَمْ تُجَمِّعْهُمَا يَدُ الْحَادِثَاتِ
وَجَـدَا الْمُلْتَـقَى عَلَيْـهَا فَقَـرَّا بَعْـدَ آبَـادِ فُرقةٍ وَشَتَاتِ
بَـرْزَخٌ تَعْبُرُ اللَّيَـالِي عَلَيْـهِ بَيْنَ عِبْرَيْنِ مِنْ بِـلًى وَحَيَاةِ
وَاحْـتَوَتْ سِـرَّ كَـائِنَيْنِ كَـأنْ لَمْ يُبْعَثَا سِـيَرةً مَـعَ الْكَائِنَاتِ

وهيَ قصيدةٌ طويلةٌ تتراوحُ بين الفرحِ والحزنِ.. والأملِ والإحباطِ؛ ولهذا كانَتْ نهايتُها:

لَا أسَـمِّيـكِ صَخْرَةَ الْمُلْتَقى وَلَكِنِّي أسَمِّيكِ صَخْرَةَ الْمَأْسَاةِ

قلْتُ: لكنَّك عُرِفْتَ بشاعرِ الحبِّ والجَمالِ.. وقَدْ غنَّى لك محمد عبد الوهَّاب قصيدةَ الجنْدُولِ.. فما قصةُ هذه القصيدةِ الجميلةِ ؟

ابتسَمَ شاعِرُنا الكبيرُ، ثُمَّ قالَ:

هِيَ تجربةٌ عشتُها في مدينةِ ڤينسْيا بإيطاليا في صيفِ عامِ 1938؛ حيثُ كانَتْ المدينةُ تحتفلُ بما يُسَمَّى بلَيَالِي الْكَرْنَفَالِ.. فينطلقُ النَاسُ جماعاتٍ كلَّ جَماعةٍ مِنْهم في جنْدُولٍ مُزْدَانٍ بالأضواءِ والورودِ.. ويمرُّونَ في قَنَواتِ المدينةِ، عَبْرَ القصورِ التاريخيةِ وهُمْ يمرحُونَ ويغنُّون.. فَأَوْحَى إِلَيَّ هذا الجوُّ الفاتنُ هذه القصيدةَ..

أَيْـنَ مِـنْ عَيْنَيَّ هَـاتِيكَ الْمَجَالِي ... يَا عَرُوسَ الْبَحْـرِ يَا حُلْـمَ الْخَيَالِ
أَيْـنَ عُشَّاقُـكِ سُـمَّارُ اللَّيَـالِي ... أَيْنَ مِنْ وَادِيكِ يَا مَهْدَ الْجَمَـالِ
مَوْكِبُ الْغِـيدِ وَعِـيدُ الْكَرْنَفَالِ ... وَسُرَى الْجِنْدُولِ فِي عَرْضِ القَنَالِ
بَيْنَ كَأْسٍ يَتَشَهَّى الْكَرْمُ خَـمْرَه ... وَحَبِيبٍ يَتَمَنَّى الْكَـأْسُ ثَغْـرَه
الْتَقَتْ عَـيْنِي بِـهِ أَوَّلَ مَـرَّه ... فَعَـرَفْتُ الْحُـبَّ مِـنْ أَوَّلِ نَظْـرَه

قُلْنا: جميلٌ يا شاعرَنا.. هذا يجعَلُنا نسألُكَ عن أعمالِك الشِّعْريةِ.

قالَ: لِي عدةُ دواوينَ شِعْريةٍ، هِيَ: الملَّاحُ التَّائهُ عامَ 1934.. لَيَالِيَ الملَّاح التائه عامَ 1940.. أرواحٌ شاردةٌ عامَ 1941.. أرواحٌ وأشباحٌ عامَ 1942.. أغنيةُ الرِّيَاحِ الأربع عامَ 1943.. زَهْرٌ وخَمْرٌ عامَ 1943.. الشَّوْقُ العائد عامَ 1945.. شَرْقٌ وَغَرْبٌ عامَ 1947.

قلْتُ: أَرَى أَنْ عناوينَ هذه الدواوينِ تجسِّدُ اتجاهَك الشِّعْريَّ الرُّومَانْسِيَّ، ولِهذا فأنْتَ أحدُ أعضاءِ جماعةِ أَبُولُّو..

قالَ: أنَا أنْتَمي فِعْلاً إلى المدرسةِ الرومانسية، الَّتي تُنَادي بوحدةِ القصيدةِ.. والصِّدقِ العاطفيِّ.. والرومانسيةِ المحلِّقة.. وإشراقةِ الديباجة.. وعذوبةِ الموسيقى.. إلى جانبِ الخيالِ والصورِ والمعانِيَ المبتكرةِ.. ولهذا رحَّبَتْ مجلةُ أَبُولُّو بأشْعاري..

قلْتُ: أتذكرُ قصيدةً لكَ تتميزُ بالرِّقةِ والعذوبةِ، هي قصيدةُ «لَيَالِي النِّيلِ».

قالَ: نَعَمْ.. نعمْ.. هيَ معزوفةٌ تتشابَهُ معَ معزوفةٍ إيطاليةٍ تُسَمَّى «سِيرِانَادا»، أقولُ فيها:

دَنَـا اللَّيْـلُ فَهَيَّـا الآنَ يَـا رَبَّةَ أَحْـلاَمِـي
دَعَـانَـا مَلِكُ الْحُـبِّ إِلَى مِحْـرَابِهِ السَّـامِي
تَعَـالَـيْ فَالـدُّجَـى وَحْـيُ أَنَـاشِيـدٍ وَأَنْغَـامِ
سَـرَتْ فَرْحَتُهُ فِي الْمَـاءِ وَالأَشْجَارِ وَالسُّحْبِ
أَلاَ فَـلْنَحْلُـمِ الآنَ فَـهَـذِي لَيْلَـةُ الْحُـبِّ
عَلَـى النِّيـلِ وَضَـوْءُ القَمَـرِ الوَضَّاحِ كَالطِّفْلِ
جَرَى فِي الصَّفَّةِ الْخَضْرَاءِ خَلْفَ الْمَاءِ وَالظِّلِّ



تَعَـــالَيْ مِثْـلَهُ نَلْـــهُو بِلَثْـــمِ الْـــوَرْدِ وَالطَّـــلِّ
هُنَاكَ عَلَى رُبَى الْوَادِي لَنَا مَهْدٌ مِنَ العُشْبِ
يَلُفُّ الصَّمْتُ رُوْحَيْنَا وَيَشْدُو بُلْبُلُ الْحُبِّ

قلْتُ: مُنْتَهى الرِّقةِ والجمالِ يا سيِّدي.. ويبدُو أنَّك كنْتَ مخلِصًا للشِّعْرِ.. وكانَ هو زادَك وقوَّتك..

قالَ: أنا عِشْتُ للشِّعْرِ وللكلمةِ العذبةِ الصادقةِ..

قلْتُ: إذًا حَدِّثْنا عن التجربةِ الشِّعْريةِ.. أو بمعنًى آخر.. من هو الشاعرُ في نظرِك ؟

قالَ: قديمًا.. كانَ ميلادُ الشاعرِ يعني حدَثًا عظيمًا.. وأظنُّه أيضًا ما زالَ حدثًا عظيمًا.. المهمُّ أنْ يكونَ شاعرًا حقيقيًّا.. وأنا لي قصيدةٌ في هذا الموضوعِ أَطْلَقْتُ عليها (ميلادُ شاعرٍ)، أقولُ فِيها:

هَبَــطَ الأَرْضَ كَالشُّــعَاعِ السَّنِيِّ بِعَصَـــا سَاحِــرٍ وَقَــلْبِ نَــبِيِّ
لَمْحَــةٌ مِنْ أَشِعَّــةِ الــرُّوحِ حَــلَّتْ فِي تَجَــالِيدِ هَيْــكَلٍ بَشَــرِيِّ
أَلْهَمَتْ أَصْغَرَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْحِكْمَةِ وَالنُّـــورِ كُـــلَّ مَعْـــنًى سَرِيِّ
وَعَلَى رَاحَــتَيْهِ رَيْحَـــانَةٌ تَنَـــدَى وَقَيْـــثَارَةٌ بِلَحْـــنٍ شَـــجِيِّ
فَحَنَتْ فَـــوْقَ مَهْـــدِهِ تَتَمَـــلَّى فَــجْــرَ مِيــلَادِ ذَلِكَ الْعَبْقَرِيِّ



وَتَسَـاءَلْـنَ حَـيْرَةً: مَلَكٌ جَا ءَ إِلَيْنَا فِي صُورَةِ الإِنْسِيِّ
مَنْ تُرَى ذَلِكَ الْوَلِيدُ الَّذِي هَشَّ لَـهُ الْكَـوْنُ مِنْ جَمَـادٍ وَحَيٍّ
مَنْ تُرَاهُ؟ فَـرَنَّ صَـوْتٌ هَتُـوفٌ مِنْ وَرَاءِ الْحَيَاةِ شَاجِي الدَّوِيِّ
إِنَّ مَا تَشْهَدُونَ مِيلاَد شَاعِرْ..

قلْتُ: لَعَلَّها قصيدةٌ طويلةٌ..

قالَ: طَبْعًا.. هيَ طويلةٌ لأنَّني لَمْ أترُكْ فِيهـا مجالاً للشـاعرِ، إلاَّ وذكَرتُه من حبِّ الطبيعةِ.. إلى التأمُّلِ.. إلى التنبُّؤِ.. إلى الخيالِ..

قلْتُ: لَكَ أيضًا قصيدتُك الشهيرةُ (الموسيقيةُ العَمْياءُ)، فما قِصَّتُها؟

قالَ: فِي عام 1935، كنْتُ أتردَّدُ على أحدِ مطاعم القاهرةِ الشهيرةِ، فَلَفَتَ نَظَرِي عازفةٌ عَمْيَاء تصدرُ مُوسِيقَى جميلةً جِدًّا، فكتبْتُ أقولُ:

إِذَا مَـا طَـافَ بِالأَرْضِ شُعَاعُ الْكَوْكَبِ الْفِضِّي
إِذَا مَـا أَتَـتِ الرِّيـحُ وَجَاشَ الْبَرْقُ بِالوَمْضِ
إِذَا مَا فَتَـحَ الْفَجْـرُ عُيُونَ النَّرْجِسِ الْغَضِّ
بَكَـيْتُ لِزَهْـرَةٍ تَبْـكِي بِدَمْـعٍ غَـيْرِ مُرْفَـضِّ
ذَوَاهَا الدَّهْـرُ لم تَسْـعَدْ مِنَ الإِشْـرَاقِ بِاللَّمْـحِ
عَلَـى جَـفْنَيْنِ ظَمْـآنَيْـ ـنِ لِلأَنْـدَاءِ وَالصُّبْحِ

أَمَهْدَ النُّورِ: مَا لِلَيْـــــلِ قَــدْ لَفَّــكَ فِي جُنْــحِ
أَضِيءْ فِي خَــاطِرِ الدُّنْيَـــا وَوَارِ سِـــنَاكَ فِي جُرْحِـي

وبعدَ وصْفٍ طويلٍ لها ولموسيقاها.. قلْتُ:

سَلِي الْقِيْثَـــــارَ بَـيْنَ يَـدَ يْـكِ أَيُّ مَلاَحِـنٍ غَنَّـى
وَأَيُّ صَبـــــابَةٍ سَـــالَتْ عَلَى أَوْتَـــارِهِ لَحْـــنا
حَــــوَى الآمَـــــالَ وَالآ لاَمَ وَالْفَرْحَـــةَ وَالْحُـزْنَا
حَــــوَى الآبَــــادَ وَالأَكْوَ انَ فِي لَفْـظٍ وَفِي مَعْـنَى

قلْتُ: حَسَنًا يا شاعرَنا.. أعلمْ أيضًا أنَّك كتبْتَ في أغراضٍ كثيرةٍ، مِثْلَ: الوطنياتِ والـمَرَاثِي.. والحنينِ إلى الوطنِ، وغير ذلكَ..

قلْتُ: لا نكادُ نحسُّ اختلافًا بين زمانِك وزمانِنا..

قالَ: وهذا في نظري هو الشِّعرُ الَّذي يبْقَى ويدومُ..

قلْتُ: شُكْرًا لَكَ يا سيِّدي على هذه الفرصةِ الرائعة، الَّتي جعلَتْنا نعيشُ مَعَ عطائِك الجميلِ.. وودَّعْناه.. إلى لقاءٍ آخرَ.

صالح جودتْ

كانَ يجلسُ على مقعدِه ويمسكُ قلمَه ويكتبُ على عُلْبَةِ سجائرِه كلماتٍ..

وقفْتُ أمامَه، وقدَّمْتُ إليهِ دَفْتَرًا صغيرًا، وقلْتُ:

- تفضَّلْ يا سيِّدي دَفْتَرَ أوراقٍ، يمكنُكَ أن تكتبَ ما تشاءُ..

قالَ: شُكْرًا لَكَ يا وَلَدي.. إنَّها مقدمةُ قصيدةٍ، خَشَيْتُ أن تضيعَ إذا لم أُسَجِّلْها.

قلْتُ: إذا شِئْتَ أكمَلْتَها..

قال: لا تَقْلَقْ.. تفضَّلْ.. إنَّه موعدُك تمامًا..

قلْتُ: شُكْرًا شاعرَنا الكبيرَ.. لَكِنْ بمناسبةِ كتابةِ مَطْلَعِ القصيدةِ.. ألاَ تكتبُ القصيدَة في جلسةٍ واحدةٍ ؟

قالَ: هُناكَ قولٌ لشاعرٍ فرنسيٍّ يقولُ: الآلهة تَجُودُ علينا ببدايةِ القصيدة، وعلينا أن نُكْملَ الباقِي.. وقد جَادَتِ الآلهةُ عَلَيَّ بالمقدمةِ.. لكنَّني سوفَ

أُكْملُها بطريقتي، فأنَا لا أكتبُ إلَّا في مكتبي وبنورٍ خافتٍ.. أَيْ أنَّني أُهَيِّئُ لنفسي جوًّا شاعريًّا..

قلْتُ: حسَنًا سيِّدي.. يدفعُني ذلك إلى التعرُّفِ على ملامحِ مسيرتِك الحياتيةِ والشِّعْريةِ.

قالَ: جَدِّي جَوْدَتْ بَاشَا.. كانَ أديبًا وسياسيًّا لاَمِعًا في تُرْكيا.. ثُمَّ انتقلَ ابنُهُ كمالُ الدِّينِ إلى مصر حيثُ عملَ مهندسًا.. وبحكمِ عملهِ كانَ يتنقلُ في محافظاتِ مصرَ.. حتَّى وُلِدْتُ في الزقازيقِ في 12 ديسمبر 1912.. وانتقلَتَ الأسرةُ إلى القاهرةِ.. والتحقْتُ بالمدرسةِ الإنجليزيةِ ثُمَّ المدرسةِ الفرنسيةِ ثُمَّ كليةِ التجارةِ.

قلْتُ: وَمَا علاقتُك بالمنصورةِ ؟

قالَ: قضَيْتُ بِهَا خَمْسَ سنواتٍ، تعرَّفْتُ فيها إلى نَاجِي وعليٍ محمود طَهَ والهمشريِّ.. وصخرةِ الملتَقَى.. ورحَلْنَا جميعًا إلى القاهرةِ حامِلِينَ الثانويةَ العامةَ.. وذكْرَيَاتي في المنصورةِ هي ذكرياتُ الحبِّ والجمالِ.. وعِشْتُ فيها قصَّةَ حبٍّ أولَى، أقولُ فِيها:

قُلْتُ لَهَـــا تَصَوَّرِي   يَـــــافِتْنَـــةَ الْمُصَـوِّرِ
تَصَوَّرِي حِكَـايَـتِي   فِي حُـــبِّكِ الْمُحَـــيِّرِ
حِكَـــــايَةٌ كَأَنَّهَـــا   خُــرَافَـــةُ الْمُعَـــمِّرِ

وَدِدْتُ لَـوْ نَظَمْتُـهَا مِـنْ لُؤْلُـؤٍ وَجَـوْهَرِ
مَلْحَمَـةً لِلأَعْصُـرِ تُرْوَى بِبَعْضِ الأَسْطُرِ

قلْتُ: ثُمَّ رحلْتَ إلى القاهرةِ لتنضمَّ إلى جماعةِ أَبُوللُّو..

قالَ: انضَمَمْنا جميعًا إلى هذه الجماعةِ، الَّتي كانَ يرأسُها - وقْتَها - أحمد زكي أبو شادي.

قلْتُ: وماذا عن دَوَاوِينِك الشِّعْريةِ ؟

قالَ: أصدرتُ ستةَ دواوين، هي: ديوانُ صالح جودتْ عامَ 1934.. لَيَالي الْهَرَم عامَ 1957.. أُغْنِيَّاتٌ عَلَى النِّيل عامَ 1962.. حِكَايَةُ قَلْبٍ عامَ 1965.. أَلْحَانٌ مِصْرِيَّةٌ عامَ 1968.. الله وَالنِّيلُ والحبُّ عامَ 1975.

قلْتُ: لقدْ أَهْدَيْتَ ديوانَك الأوَّلَ إلى العيونِ الزرقِ والشَّعرِ الذهبي..

أطلقَ صالحُ جودَتْ ضَحِكَتَه المجلجلةَ، وقالَ: فِعْلاً.

قلْتُ: أَسْمِعْنَا شيئًا مِنْه يا سيِّدي..

قالَ:

عَيْنُ مَنْ يَهْـوَاكِ تَشْـتَاقُ الْكَرَى قَلْبُ مَنْ يَهْوَاكِ يَشْدُو بِالْحَنِينْ
هَلْ رَأَيْتِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي جَرَى هَلْ سَمِعْتِ الْقَلْبَ مَوْصُولَ الأَنِينْ
يَا شَقِيقَ الزَّهْـرِ وَالطَّيْرِ أَمَـا سَـاءَلَـتْ نَفْسُـكَ عَنِّي أَخَـوَيْكْ

أَنَــا فِي رَوْضِــكَ أَرْوِيــهِ بِمَــا فَاضَ مِنْ دَمْعِي مَدَى الْعُمْرِ عَلَيكْ
أَزْرَعُ الآمَالَ فِي رَوْضِ هَــوَاك وَأرَوِّيــهَا بِدَمْــعِي وَدَمِــي
فَإِذَا مَا عُدْتُ أَلْفَيْتُ نَـــوَاك فِي ثَنَايَا الرَّوْضِ يَبْنِــي مَأْتَمِــي
أَيُّهَا الْهَاجِرُ مِــنْ غَــيْرِ سَــبِب لَوْ تُجَــافِي أَنَــا رَاضٍ بِجَــفَاكْ
الْعُيُونُ الزُّرْقُ وَالشَّــعْرُ الذَّهَــبْ أَلْجَــأَنِي يَــا حَبِيــبِي لِهَوَاكْ

قلتُ: حسنًا يا شاعَرنا.. ما رأيُك إذًا في جمالِ المرأةِ ؟

قالَ: هناكَ جمالٌ حسيٌّ.. وهناك جمالٌ روحيٌّ.. والمرأةُ الكاملةُ لا توجدُ.. لكنَّنا كَشُعَراء.. نكملُ بخيالِنا ما نَقَصَ لَدَى المرأةِ.

قلتُ: وبالتَّالي أنتَ تصورُ المرأةَ في أجملِ صُوَرِها..

قالَ: أحاولُ أن أتخلَّى عن عَقْلي.. وفي هذا أقولُ:

خَلَّيْتُ فِي الْحُبِّ عَقْلِي فَخَلِّ عَقْلَكَ أَيْضَا
دَعْنَا نُجَنُّ وَنَلْهُو فِي الْكَوْنِ طُولاً وَعَرْضَا
وَنُشْعِلُ اللَّيْلَ نُورًا وَنَحْرِمُ الْعَيْنَ غَمْضًا
فَكَارِهُو النُورِ عُمْيٌ وَعَاشِقُو النَّوْمِ مَرْضَى
دَعْنَا نَذُوقُ الْجَنى فِي كُلِّ الْمَواسِمِ غَضَّا
قَلْبِي بِكَفَّيْــكَ رَهْنٌ فَهَبْ حَنَـانَكَ قَرْضَـا



قلْتُ: لا فُضَّ فُوكَ يا شاعرَنا.. نعودُ مرَّةً أخرى إلى ثقافتِك.. فَقَدْ تعلَّمتَ الفَرنسيةَ، وقرأتَ الأدبَ الفرنسيَّ..

قالَ: قرأتُ الشِّعْرَ الفرنسيَّ في مرحلتهِ الرومانسيةِ.. وأعجبتني طريقةُ التعبيرِ والانطلاقِ في مجالاتِ العاطفةِ والجمالِ..

قلْتُ: وكما أحبَّ الفرنسيون بلادَهم.. أحببْتَ أنْتَ أيضًا مصرَ وآثارَها..

ولَكَ قصيدةُ (لَيَالِي الْهَرَمِ) تَبُثُّ فيها عاطفتَك الخاصَّةَ..

قالَ:

يَا حَبيبِي نَامَتِ الشَّمْسُ وَرَاءَ الْهَرَمِ
وَتَهَادَى الْقَمَرُ النَّشْوَانُ بَيْنَ الظُّلَمِ
مَلِكًا يَخْتَالُ تيهًا فَوْقَ عَرْشِ الأَنْجُمِ
وَيُنَادِي كُلَّ لَهْفَانٍ إِلَى الْحُبِّ الظَّمِي
هَا هُنَا مَهْدُ أَبِي الْهَولِ هُنَا
كَاتِمُ الأَسْرَارِ مِنْ عَهْدِ (مِنَا)
هَيَّأَ الأَسْرَارَ وَالنَّجْوَى لَنَا
عَبْقَرِيُّ الصَّمْتِ مُنْذُ الْقِدَمِ
فَتَمَتعْ بِلَيَالِيَ الْهَرَمِ

قلْتُ: ولكَ يا سِّيدي مواقفُ وطنيةٌ متعددةٌ في الدِّفاع عن مِصرِ وحقوقِها في الحريةِ والاستقلالِ.. ثُمَّ حِينَما حدثَتْ نكَسةُ 1967 كتبْتَ قصيدةَ (لا وقْتَ للحبِّ)، تَهْمِسُ فيها بحبِّ مِصرِ:

قالَ: كانَتِ الأحداثُ أكبرَ من أيِّ تعبيرٍ.. فكيفَ تكونُ العاطفةُ آنذاك بعيدةً عنْ حبِّ الوطنِ ؟

قلْتُ: ماذا قلْتَ في ذلك يا سِّيدي ؟

قالَ:

تَتَسَاءَلِينَ لِمَ انْثَنَى قَلْبِي ... يَا طِفْلَتِي لاَ وَقْتَ لِلْحُبِّ
لاَ تَسْأَلِي مَا خَطْبُ قِصَّتِنَا ... وَتَأَمَّلِي مَا جَدَّ مِنْ خَطْبِ
مَا عَادَ بِي شَوْقٌ أُكَابِدُهُ ... وَأَنَا أُكَابِدُ مِحْنَةَ الشَّعْبِ
الْحُبُّ يَوْمَ أَرَى كَرَامَتَنَا ... مَرْفُوعَةَ الْهَامَاتِ لِلسُّحْبِ
الْحُبُّ يَوْمَ يَعُودُ لاَجِئُنَا ... مُتَحَرِّرًا مِنْ عِيشَةِ الْجَدْبِ

قلْتُ: الشاعرُ إذًا مرهفٌ لكلِّ ما يحدثُ حولَهُ..

قالَ: الشاعرُ ابنُ مجتمعِه.. فإذا لمْ يناصِرْه ويشدَّ من أزْرِه.. فما الذي يمكنُه أن يقدِّمَ غيرَ الإخلاصِ والمحبةِ ؟!

قلْتُ: إذًا لا بدَّ أنْ يبثَّ الشاعرُ روحَ الأملِ.

قالَ: لِي قصيدةٌ بعنوانِ (شارعِ الأملِ)، أقولُ فِيها:

بِلاَدُنَــا حَــدَائِقُ الْغَـزَلْ — نُجُــومُنَـا عَلَى السَّــمَا قُبَلْ

نَسِيرُ فِى بِـلاَدِنَا الْجَمِيـلَـه — مَوَاكِبًــا مَوَاكِبًــا طَوِيـلَــه

نُرَدِّدُ الْمَبَــادِئَ الأَصِيــلَه — وَنَحْمِــلُ الْمَشَــاعِرَ النَّبِيلَه

نَسْتَقْبِلُ الصَّبَاحَ بِابْتِسَــامْ — وَنَكْـــرَهُ الْحَيَاةَ فِى الظَّــلاَمْ

وَنَعْشَقُ الْجَــمَالَ وَالسَّلاَمْ — وَرُوحُنَــا لاَ تَعْــرِفُ الْمَــلَلْ

بِلاَدُنَــا ضِفَافُهَـــا مُلَوَّنَــه — بِوَرْدَةٍ وَفُـــلَّةٍ وَسَــوْسَــنَه

وَهَيــكَلٍ وَقُبَّــةٍ وَمِئْذَنَـــه — تُشْرِقُ فِيهَا الصَّلَوَاتُ الْمُؤْمِنَه

قلْتُ: حسنًا يا شاعَرنا.. إنَّها رحلةٌ ثريةٌ من الإبداعِ والعطاءِ والحبِّ والجمالِ.

قالَ: إنَّه الشعرُ يا صديقي.. إنَّه هذا الفارسُ، الَّذي يهزِمُ كلَّ شيءٍ، ويصادقُ الشاعرَ المخلصَ..

ثم قَهْقَهَ حتَّى شَرِقَ.. وهنا شكرناه وودَّعْناه..



علي الجارم

لمْ يكنْ وحيدًا على مقعدِه.. لكنَّه كانَ مُحاطًا بتلاميذِ دارِ العلومِ، الَّذينَ لمْ يتْرُكوه حتَّى في أيَّامِ إجازتِه.. بَلْ صاحَبُوه وأخذوا ينهلون من علمِهِ وشعرِه..

دخلْنَا علَيْه.. وألْقَيْنا عليه التحيةَ.. وأشارَ لنا بالجلوسِ..

قلتُ: لو يَسْمَح شاعِرُنا الكبيرُ أن نتحاورَ معه بضعَ دقائقَ..

رحَّبَ شاعرُنا.. بدأْتُ حِواري مَعَه:

- سيِّدي الشاعرَ الدَّرْعَمِيَّ الكبيرَ.. نعرفُ أنَّك من أسرةِ علمٍ ودينٍ.. مما شكَّلَ ثقافتَك.. وجعَلَك مهتمًا باللغةِ والشِّعرِ.

قالَ: كانَ أبِي القاضي العلامةَ محمدَ بنَ صالحِ الجارمِ.. وكانَ بيتُنا مجلسَ علمٍ وعلماء.. ولهذا نشأْتُ في أحضانِ مكتبةٍ ضخمةٍ.. وَمُناخٍ علميٍّ وثقافيٍّ رائعٍ..

قلْتُ: إذًا نريدُ أن نعرفَ علاماتِ حياتِك..

قالَ: وُلِدْتُ في رَشيد عَلَى ضِفَافِ النِّيلِ عامَ 1881م، وتعلَّمْتُ بالأزهرِ، والتحقتُ بدارِ العلومِ وتخرَّجتُ فيها عامَ 1908.. ثم سافرتُ في بَعثةٍ إلى إنجلترا لدراسةِ الأدبِ وعلمِ النَّفسِ، عدتُ بعْدَها مدرسًا في دارِ العلومِ.. ثم مفتشًا بوزارةِ المعارفِ ثم وكيلاً لدارِ العلومِ فعميدًا لها.. وكنتُ عضوًا بِمَجْمَعِ اللغةِ العربيةِ مَعَ العقادِ وطه حسين..

قلتُ: وكيفَ بدأْتَ علاقتَك بالشِّعرِ ؟!

قالَ: تأكَّدْ يا وَلَدي أنَّ كلَّ طالبٍ في دارِ العلومِ كانَ يحاولُ أنْ يكتبَ شِعْرًا.. فإذا أخلصَ له دُونَ غيرِه صارَ شاعِرًا.. وأنا كنْتُ من المخلصين..

قلتُ: لهذا كتبْتَ عن دارِ العلومِ عدةَ قصائدَ.. نريدُ أنْ نسمعَ عن إحداها:

قالَ: في عيدِ إنشاءِ دارِ العلومِ الخمسينَ (عامَ 1927)، أنشدتُ أقولُ:

يَا خَليــلَيَّ خَلِّيَــانِي وَمَــــا بِي ... أَوْ أَعِيدَا إِلَيَّ عَهْدَ الشَّبَابِ
حُلُمٌ قَــدْ مَضَى وَأَيَّــــامُ أُنْسٍ ... ذَهَبَتْ غَيْرَ مُزْمِعَاتِ الإِيَابِ
وَأَزَاهِــيرُ كُــنَّ تَــاجَ عَــرُوسٍ ... عُفِّرَتْ بَعْدَ لَيْلَةٍ مِنْ تُرَابِ
لَيْتَ لِي لَمْحَـةً أُعِــيدُ بِهَــا منْـ ... ـكَ بَقَايَا تلْكَ الأَمَانِي الْعِذَابِ
حيثُ أختــالُ نَــاضِرَ العودِ بِسَّـ ... ـامًا كَثِيرَ الهَوى قَلِيلَ العِتَابِ
فِي صِحَابٍ مِثْلَ الدَّنَـانِيرِ لا تَبْلَـ ... ـى مَوَدَّاتُهُمْ بِطُولِ الصِّحَابِ



لَيْتَ شِعْرِي أَيَرْجِعُ الأَمْسُ عَهْدًا   غَصَبَتْهُ الأَيَّامُ أَيَّ اغْتِصَابِ
عَهْدَ دَارِ العلومِ أَنْتَ يَـدُ الدَّهـ   ـرِ جمالُ الدهورِ والأحقابِ
إنْ ذكرناكَ هزَّنَا الشَّوْقُ لِلشَّوْ   قِ وَلَهْوِ اللَّذَّاتِ وْالأَتْرَابِ

قلتُ: كثيرون قالوا عَنْك وعن شِعْرِك.. بَلْ إنَّ العقادَ رأي أنَّك متفردٌ في شعرِك لا تُحاكِي أحدًا..

قالَ: لقْد حاولتُ ذلك يا وَلَدي.. ورُبمَّا دِرَاستي في دارِ العلومِ جعلَتْني أجمعُ بين التقليديةِ التراثيةِ.. وحسِّ العصرِ الَّذي عِشْتُ فيهِ..

قلتُ: وكتبْتَ في كلِّ الأغراضِ الشعريةِ..

قالَ: نعمْ.. في السياسةِ.. في الوطنيةِ.. في الغَزلِ.. في المراثِي.. في الوصْفِ..

قلتُ: ألاحِظُ يا سيِّدي أنك تذكرُ العروبةَ.. ومجدَها.. ولك بالتأكيدِ قصائدُ تتناولُ الوطنَ.. والعروبةَ..

قالَ: لمْ تمرَّ مناسبةٌ وطنيةٌ، لمْ أكتبْ فيها.. فالعروبةُ أصيلةٌ فِينَا.. كتبْتُ في بغدادَ.. ولبنانَ.. وفلسطينَ ومصرِ..

قلت: نريدُ أن نستمتعَ بما كتبْتَ في وَصْفِ بغدادَ..

قالَ :

بغـــدادُ يَا بلَــدَ الرشــــيدِ ومَنَـــارةَ المجــدِ التَّــليدِ
يا بَسْـــمةً لَمَّـــا تَـــزَلْ زَهْـراءَ في ثَـــغْرِ الخــلُودِ
يا موطــنَ الحُبِّ المقيــمِ ومَضْـرَبَ المَثَــلِ الشّرُودِ
يا مَغْـرِبَ الأمَــلِ القَدِيمِ ومَشْرِقَ الأمَــلِ الجــدِيدِ
يا بنتَ دجلةَ قـدْ ظَمِئْتُ لِرَشْفِ مَبْسَمِكِ الْبَـرُودِ
يَا زَهْرَةَ الصَّحــــرَاءِ رُدِّي بَهْجَةَ الدُّنيـــا وَزِيـــدِي
يَا جَنَّةَ الأحْــلامِ طـــالَ بقومِـــنَا عَهْـــدُ الرُّقُـــودِ
الرَّافِـــدَانِ تمـــازَجَـــا فِي الحُبِّ بالنِّيلِ السَّعِيدِ
وتَعَـــانَقَ الظِّــلانِ ظِـــلُّ الطَّاقِ[1] والهَرَمِ المشِيدِ

قلتُ : لَيْتَ هذه القصائدَ تقرؤها اليومَ ؛ لتعيدَ إلى شبابِنا هذا الحبَّ الجميلَ للعروبةِ وبلادِها..

قالَ : لا يمكنُ أن يَنْسى الشَّبابُ عروبتَهم مَهْما حَدثَ..

قلتُ : وماذا قلْتَ في مصر يا سيِّدي ؟

قالَ :

صوَّرَ اللهُ فـيكِ معنَــى الخـلودِ فَابْلُغِي ما أَرَدْتِه ثُمَّ زِيدِي

(1) الطاق : ديوان كسرى، وهو على مسافة قريبة من بغداد.



أنْـتِ يا مصرُ جَـنَّةُ اللهِ في الأرْ　　ضِ وعَيْنُ العُلاَ وواوُ الوجُودِ
كَـمْ جَديـد عَلَيْـه نبـلُ قـديمٌ　　وقديمٌ عليه حسنُ جديدِ
قـد رآكِ الدَّهـرُ العَتِيُّ فـتاةً　　وهو طِفْلٌ يلهُو بطَوْقِ الوليدِ
شَابَ مِنْ حَوْلِكِ الزَّمَانُ وَمَازِلْـ　　تِ كَغُصْنِ الرَّيْحَانَةِ الأمْلُودِ
أَنْتِ يا مصرُ بسمةٌ في فمِ الحُسْـ　　ـنِ وَدَمْعُ الحنَانِ فوقَ الخدودِ
أَنْتِ في القفرِ وردةٌ حـولها الشَّوْ　　كُ وفي الشَّوْكِ عِزَّةٌ للورودِ
نَثَرَ النِّيـلُ فـيكِ تِـبْرًا وَأَوْهَـى　　لِينُـهُ مـن قَسَاوةِ الجُلْمُودِ
أنْـتِ للاجـئين أمٌّ ووِردٌ　　لِظِمَاءِ القلـوبِ عذبُ الورودِ

قلتُ: حسنًا يا شاعرَنا.. أعْلَمُ أيضًا أنَّك صديقٌ لسعد زغلول..

قالَ: كانَ سعدُ صديقًا للجميعِ.. فهو زعيمُ الأمةِ.. وله مآثرُ كثيرةٌ وبطولاتُ تقومُ على العزيمةِ والوطنيةِ والهِمَّةِ العاليةِ.

قلتُ: وحينما فُجِعَت الأمةُ المصريةُ برحيلِه في عامِ 1927، قالَ فيه الشُّعراءُ قصائدَ كثيرةً.. فماذا قلْتَ يا سيِّدي ؟

قالَ:

مَا كـــانَ سـعدُ آيـــةً في جِيلِه   سَعْدُ المخلدُ آيَةُ الأجيالِ
تَفْنَى أحـــاديثُ الرجـــالِ وَذِكْرُهُ   سَيَظَلُّ في الدُّنْيَا حديثَ رجالِ
الأرْضُ تَرْجفُ والسمـاءُ مريضةٌ   والنفْسُ حَيْرَى والهمومُ تَوَالي
والناسُ في صمْتِ الْمَنُونِ كأنَّهم   صورٌ كَسَاهَا الحزْنُ ثوبَ خَبَالِ
سعدُ وحَسْبُكَ من ثلاثـةِ أحرفٍ   ما في الْبَرِيَّةِ من نهى وَكَمَالِ

قلتُ: في عامِ 1907 كَرَّمَ الشعراءُ أحمدَ شوقي وبَايَعُوه بإمارةِ الشِّعرِ..

قَالَ: أحمد شوقي يستحقُّ ذلك يا وَلَدي.. فهو شاعرٌ واعٍ برسالتِه.. وطنيٌّ في وُجْدَانه.. محبٌّ لبلدِه وأهلِه، على الرَّغْم من أنَّه ينْتَمِي إلى أسرةٍ أرستقراطيةٍ.. وكثيرًا ما كنتُ أنْشِدُ له قصائدَه في المحافلِ.. لأنْ الشِّعرَ يعتمدُ على رَوْعةِ الأداءِ.. وكانَ شوقي في هذه الناحيةِ لا يتمتعُ بهذه الموهبةِ..

قلتُ: فماذا قلْتَ مُبَايِعًا له يا سيِّدي ؟

قالَ:

وقفْــتَ تُجَــدِّدُ آثــارَهـــا   وتَنشُــرُ للعُــرْبِ أشعارَها
وتُرْجِعُ بغــدادَ بَعْدَ الفنـــاءِ   تُحَــدِّثُ للنَّـــاسِ أخبارَها
وتبعثُ حــسَّانَ مــن رَمْسِــه   وَتُحْــيي عُكَــاظَ وسُمَّارَها
بشِعْــرٍ لـــه نَـــبَرَاتٌ تَهُـــزُّ   نِيَاطَ القلـــوبِ وأوتـــارَها
وَنظمٍ لــــه نَفَحَــاتُ الرِّيَاضِ   إذا نقَّطَ الطَّلُّ أزْهَـــارَها
نَصَرْتَ الفَضِيلةَ مِــنْ بَعْدِ أنْ   طَوَاهَا الزَّمَـــانُ وأنْصَـــارَها
فَغَرِّدْ كَمَا شِئْتَ لاَ فُضَّ فُوكَ   وعِشْ بطلَ الضادِ مِغْـوَارَها

قلتُ: ذكرتَ يا سيِّدي أنَّك تنتمي إلى بلدِك رشيدِ.. هذه المدينةُ التاريخيةُ العظيمةُ القابعةُ على ضفَّةِ النيلِ.. فهل قلْتَ شِعْرًا فيها ؟

قالَ: كنتُ قَدْ غبْتُ عَنْها فترةً طويلةً.. فكتبتُ في عامِ 1941، أشيدُ بجمالِها ومجدِها وتاريخِها، أقولُ:

جَــدِّدي يَا رَشِــيدُ للحبِّ عَهْدا   حسبُنا حسبنا مِطَالاً وصَدَّا
جَــدِّدي يا مدينــةَ السِّحْرِ أحْلاَ   مًا وعَيْشًا طَلْقَ الأَسَارِيرِ رَغْدَا

جَدِّدي لَمْحَةً مَضَتْ مِنْ شَبَابٍ   مِثْلَ زهْرِ الرَّبَى يَرِفُّ وَينْدَى

وابْعَثِي صَحْوَةً أَغَارَ علَيْها الشـ   ـيبُ حَتَّى غدَتْ عَنَاءً وسُهْدَا

وتعـالَيْ نَعيشُ في جنَّـةِ المَـا   ضِي إذا لمْ نَجِدْ مِنَ العيشِ بُدَّا

ذكريـاتٌ لَوْ كـانَ للدهرِ عِقدٌ   كُنّ في جِيدِ سالفِ الدَّهرِ عِقْدَا

قلتُ: أعرفُ أنَّك أيضًا كُرِّمْتَ عدَة مراتٍ..

قالَ: حَمْدًا لله يا وَلَدي.. فقدْ نِلْتُ عن شِعْرِي أَوْسِمَةً كثيرةً، مِنْها: وِسَامَ النيلِ عامَ 1919.. رتبةَ الباكويةَ عامَ 1935..ووسامَ الرافدين عامَ 1936..ووسامَ الأرز بلبنانَ عامَ 1947.. وفي عامِ 1991 حصلْتُ على وسامِ العلومِ والفنونِ من مصر..

قلتُ: إنَّك تستحقُّ المزيدَ يا سيِّدي، وشكرًا لك على هذا اللقاءِ الممتعِ.

حافظ إبراهيم

أخذنا نبحثُ عَنْه في الدرجةِ الأولى من القطارِ.. فلمْ نجدْه..

قالَ أَحَدُنا.. نبحثُ عنه في الدرجةِ الثانيةِ.. فأسرَعْنا ننظرُ في وجوه الناسِ والشُّعراءِ فلم نجدْه..

قلتُ: أنا متأكدٌ أنَّه يجلسُ في الدرجةِ الثالثةِ مع الناسِ البسطاءِ..

أسرَعْنـا نعبرُ إلى الدرجـةِ الثـالثةِ..حيثُ المقـاعـدُ الخشبيةُ.. والنـوافـذُ المهملةُ الَّتي يتسربُ مِنْها الهواءُ.. وضوءُ الشمسِ.. فلا توجدُ ستائرُ تحمِي المسافرينَ..

أخَذْنا ننظرُ في الوجوهِ.. حتَّى وجَدْناه يجلسُ وحيدًا على أحَدِ المقاعدِ.. وفوقَ رأسهِ طربوشُه الأحمرُ.. وقدْ لبسَ نظَّارتَه وهو يقرأ في أحَدِ الكتبِ القديمة..

جلَسْنا أمامَه.. ثم ألقينا عليهِ التحيةَ.. فنظرَ إلَيَّ من خلف نظَّارةِ القراءةِ، وردَّ تحيَّتِي وأغلقَ الكتابَ..

قلتُ له: إلى أيْنَ أنتَ مسافرٌ يا سيِّدي ؟

قالَ: إلَى طَنْطَا.. فَقَدِ اعتدْتُ أنْ أزورَ سيِّدي أحمدَ البدويِّ، كُلَّ عامٍ، في مولدِه..

قلتُ: وما صِلَتُك بِهِ ؟

قال مبتسمًا: هذه قصةٌ قديمةٌ يا ولدي..

قلتُ: احْكِهَا لنا يا سيِّدي من البدايةِ.. فنحنُ نشتاقُ إلى معرفتِها..

قالَ: تعرفون أنَّني وُلِدْتُ في سنةِ 1872 في ذهبية، كانَتْ راسيةً على شاطئِ النِّيلِ بالقربِ من ديروطَ بالصعيد.. فقد كانَ وَالدِي المهندسُ إبراهيم فهمي أحدَ المهندسين في قناطرِ ديروط.. وحينما تُوُفِّيَ أبِي بَعْدَ أربع سنواتٍ من مَوْلِدِي، تولَّى خَالِي رِعَايَتِي، وكانَ يعملُ مهندسًا في القاهرةِ.. ثم نقلَ إلى هندسة طنطا وأنا وأمِّي معه.. والتحقتُ في طنطا بالمدرسةِ الثانويةِ.. لكنَّني انصرفتُ عن التعليمِ، ودخلتُ المسجدَ الأحمديَّ لأجلسَ في حلقاتِ الدرسِ...

قلتُ: لعلَّك استفدتَ كثيرًا من هذه الحلقاتِ ؟!

قال: طَبْعًا يا ولدي.. تعلمتُ فيها الكثيرَ.. ابتداءً باللغةِ العربيةِ والشِّعرِ..

قلتُ: وماذاَ بعْدُ يا سيِّدي ؟

قالَ: اشتغلتُ في مكتبِ محاماة.. ثُمَّ دخلتُ المدرسةَ الحربيةَ، وخرجتُ مِنْها ضابطًا في الجيشِ، وخدمتُ بالسُّودَانِ.

وحينما عدتُ وَأُحِلْتُ إلى الاسْتِيدَاع، عملتُ رئيسًا للقسم الأدبيِّ بدارِ الكتبِ وظللتُ بِها، حتَّى أحلتُ إِلَى المعاشِ عامَ 1932.

قلتُ: كثيرون لا يعرفون أنَّ لك بيتًا من الشِّعرِ يقدمُ به برنامجُ (لغتُنا الجميلةُ) في الإذاعةِ..

قالَ: نَعَمْ.. نعمْ.. سمعتُه:

أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ فَهَلْ سَاءَلُوا الْغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتِي

قلتُ: ومَا مناسبةُ هذا البيتِ يا سيِّدي ؟

قالَ: كانَ ذلك في عامِ 1903؛ حيثُ كانت اللغةُ الإنجليزيةُ من ناحيةٍ.. والعاميةُ المصريةُ من ناحيةٍ أخرى تُحَاصِرَانِ الفُصْحَى.. فكتبتُ قصيدةً بعنوانِ: اللغةُ العربيةُ تَنْعَي حَظَّها بين أهلِها، وقلتُ فيها:

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فاتَّهَمْتُ حَصَاتي[1] وَنَـادَيْتُ قَوْمِي فَـاحْتَسَبْتُ حَيَـاتِـي

أَنَـا البحرُ في أحشائهِ الدُّرُّ كـامنٌ فهلْ ساءَلوا الغوَّاصَ عن صَدَفاتِي

قلتُ: يقالُ دائمًا إنَّك شاعرٌ بائِسٌ.. وشوقي شاعرُ الجاهِ والسلطانِ..

قَالَ: يا بُنيَّ.. نحنُ أصدقاءُ على الرَّغم من ذلك.. أنا راضٍ بفقري وبُؤْسي.. وقد ظلَّ الناسُ يقولون دائمًا - شَوْقِي وحَافظ - كما يقولون - بَيْضٌ وسَمَكٌ..

ضحِكْنا لهذه النُّكْتَةِ..

---

(1) الحصاة: العقل.



فقلتُ: لَكِنَّكُما كنتما صديقين حميمين..

قالَ: نَعَمْ يا وَلَدي.. واسْمَحْ لي أن أحكِيَ لك شيئًا يؤكِّدُ ذلك..

قلتُ: تفضَّلْ يا سيِّدي..

قالَ: في سنةِ 1917 كانَ شَوْقِي في الأندلسِ، فأرسلَ إليَّ أبياتًا تقولُ:

يَا سَاكِنِي مصرَ إنَّا لا نـزالُ عَلَى   عهْـدِ الـوَفَـاءِ وإنْ غِبْنَـا مُقِيمِينَا

هَـلَّا بَعَثْتُم لَنَـا من مـاءِ نهرِكُمُ   شيئًا نَبلُّ بِهِ أَحْشَاءُ صَادِينَا[1]

كلُّ المنَاهِلِ بَعْدَ النِّيـلِ آسِـنةٌ   مـا أبْعَـدَ النِّيلَ إلَّا عَـنْ أمَـانِينَا

فلمَّا وصلَتْني هذه الأبياتُ معنونةً (من الغائبِ إلى المقيمِ) كتبت أبياتًا ثلاثة بعنوان (من المقيم إلى الغائب) وأرسلتها إليه، أقول فيها:

عجِبتُ للنيـلِ يـدرِي أنَّ بُلبُـلَه   صادٍ ويَسقي رُبا مصرٍ ويَسْقِينَا

وَاللهِ مَا طَابَ للأصحـابِ مَوْرِدُهُ   وَلاَ ارتضَوْا بَعْدَه مِنْ عَيْشِكم لِينَا

لَمْ تَنْأ عَنْه وإن فـارقْتَ شاطِئَه   وقد نَأَيْـنَا.. وإنْ كُـنَّا مُقِيمِينَا

قلتُ: اللهُ.. اللهُ.. يا شاعِرَنا العظيمَ..

قالَ: وعِنْدَما أقِيمَ في عامِ 1927 احتفالٌ بتنصيبِ شوقي أميرًا للشعراءِ، أنشدتُ قصيدةً أهنئُه فيها.. وحينما وصلتُ إلى قولي:

---

(1) الصادي: العطشان.

أَميرَ القَوَافِي قَـدْ أَتَيْتُ مُبَايِعًا   وَهَذِي وُفُودُ الشَّرْقِ قَدْ بَايَعَتْ مَعِي

وثبَ شوقي من كرسيِّه وقبَّلني في خَدِّي.. نحنُ أصدقاءُ أحبابٌ يا ولدي..

قلتُ: ويشاءُ القدرُ أن يكونَ رَحيلُكما أيضًا في عامٍ واحدٍ، هو عامُ 1932...

والآنَ.. يا سيِّدي لقدْ كتبتَ في أغراضٍ متعددةٍ، أليسَ كذلك؟!

قالَ: ديوَاني بينَ أيدِيكم.. جمعَه أصدقائي بعد وَفَاتي.. وهو جزءانِ ويشملُ أغراضًا متعددةً: الوصفَ والاجتماعياتِ والوطنياتِ والمراثِي والإخوانياتِ والسياسةَ والشَّكْوَى... وغيرَها..

قلتُ: وما علاقتُك بِأُمِّ كلثوم ؟ وكيفَ غنَّتْ لك (مصرُ تتحدثُ عن نفسها).

قالَ: كنَّا أصدقاءَ.. وكانَ ثالثُنا الشيخُ عبدُ العزيزِ البشْري.. وهي غنَّتْ هذه القصيدةَ بَعْد رحيلي بسنواتٍ طويلةٍ..

قلتُ: وما مناسبةُ هذه القصيدةِ ؟!

قالَ: أنشدتُها في مناسبةٍ وطنيةٍ عامَ 1921، وهي على لسانِ مصر.. وأقولُ فيها:

وقــفَ الخــلقُ ينظرونَ جــميعًا   كيفَ أبْنِي قواعدَ المجْدِ وحدِي

وبُنَاةُ الأهــرامِ في سالفِ الــدَّ   هرِ كَفَوْنِي الكلامَ عندَ التحدِّي

وبُنَاةُ الأهــرامِ في سالفِ الــدَّ هرِ كَفَوْنِي الكلامَ عندَ التحدِّي

أنا تاجُ العَلاءِ في مَفْــرِقِ الشر قِ ودُرَّاتُـــه فَرَائِـــدُ عِقْـــدِي

أَيُّ شَيءٍ في الغربِ قَدْ بهرَ النا سَ جَمَالاً.. ولم يكنْ مِنْه عِنْدِي

فَــتُرَابِــي تِبْــرٌ ونَهْــرِي فُــرَاتٌ وسَمَائِـــي مَصْقُولـــةٌ كَالْفِرندِ[1]

أَنَـــا إنْ قَـــدَّرَ الإلـــهُ مَمَـــاتِي لاَ تَرَى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرَّأسَ بَعْدِي

إنَّنِـــي حُـــرَّةٌ كَسَـــرْتُ قُـــيُودِي رَغْمَ رَقْبَى العِدَا وقطَّعْتُ قِدِّي[2]

إنَّ مَجْــدِي فِي الأُولَيَاتِ عَرِيقٌ مَنْ لَهُ مِثْلُ أُولَيَاتِي وَمَجْدِي

نصفُ قـرنٍ إلَّا قلـيلاً أُعَـــانِي مـــا يُعَـــانِي هـــوانَه كلُّ عَبْــدِ

نَظَـــرَ اللهُ لِـــي فـأرشَـــدَ أبـــنَا ئِي فشَدُّوا إلى العُلا أَيَّ شَدِّ

إنَّما الحــقُّ قــوةٌ من قُوَى الإيـ مانِ أمْضَى من كلِّ أبْيَضَ هِنْدِي[3]

قــد وعـــدتُ العُـــلا بكلِّ أبيٍّ مِنْ رِجَالي فأنجِــزُوا اليومَ وعْدِي

وَارْفَعوا دَوْلتي على العِلْمِ والأخ لاقِ فالعِلْمُ وحــدَهُ ليس يُجْــدِي

نحْــنُ نَجْـــتَازُ مَوْقِفًـا تَعْـثُرُ الآ راءُ فيـــهِ وعَثْـــرةُ الـــرَّأْيِ تُـــرْدِي

---

(1) الفرند: السيف.

(2) القد: القيد.

(3) هندي: نوع من السيوف.

فاسْتَبِينُوا قَصْدَ السَّبِيلِ وجِدُّوا   فَالْمَعَالِي مَخْطُوبَةٌ لِلْمُجِدِّ

قلتُ: هذه القصيدةُ كُتِبَتْ في عامِ 1921، ولا تزالُ تؤثِّرُ فينا.. مما يدلُّ على أنَّ حسَّك الوطنيَّ يسري في دمكِ..

أخرجَ شاعرُنا الكبيرُ حافظ إبراهيم سِيجَارَةً وأشعلَها، ثم قالَ:

- الوطنيةُ يا ولدي لا تتجزأ.. فإمَّا أنْ تُحبَّ وطَنك.. وإمَّا أن تكونَ خائنًا..

قلتُ لَه: ماذا كنْتَ تقرأ يا سيِّدي؟

قالَ: كنْتُ أقرأ روايةَ البؤساء لِفيكْتُورْ هُوجُو.. لأنَّني أريدُ أنْ أترجمَها..

ثم ضحكَ، وهو يقولُ: تصوَّرْ بائسًا مثلي يترجمُ روايةَ البؤساءِ..

قلتُ: أرى أنَّك بشِعْرِك ومكانتِك الأدبيةِ لسْتَ بائسًا يا سيِّدي..

نشكرُك على هذا اللقاءِ الَّذي سمحْتَ لنا بهِ.. وتركْنَاه يعيشُ مع فيكتور هوجو..

محمود حسن إسماعيل

لمْ يكنْ يعلمُ بقدومِنا..

والحقُّ أنَّا أخَذْنا نبحثُ عَنْه حتَّى وجَدْناهُ .. لم يكن متخفِّيًا كعادته في جلباب صَعيديٍّ.. وطاقية تكادُ تُخفي جبهتَه.. لكنَّنا استطَعْنا أن نتعرَّفَ علَيْه.. وكانَ لا يلبَسُ نظَّارتَه، ويكتبُ على ورقةٍ صَفْراءَ.. بقلمٍ أسودَ..

قلتُ لأصدقائي: هلْ رَأيتم مِنْ قبلُ رجلاً يكتبُ شِعْرًا؟!.. لا بدّ أنَّه هو الَّذي نبحثُ عَنْه..

تقدَّمتُ إليه في هدوءٍ، وسألتُ:

- أستاذَنا الشاعرَ الكبيرَ محمود حسن إسماعيل ؟!

رفعَ وجهَه عَنِ الورقةِ، وأَوْقَفَ الكتابةَ.. وسألَ: كيفَ عرَفْتَني يا بُنيَّ ؟

قلتُ: من استغراقِك في الكتابةِ.. فإذا كنتَ مستغرقًا ما زِلْتَ.. يمكنُني أنْ أنتظرَ صامتًا، أنا وأصدقائي، حتَّى تنتهيَ..

صمَتَ قليلاً ثم قالَ: تفضَّلوا.. خمسَ دقائقَ فَقَطْ وأتفرَّغُ لكم.

كانَتْ متعةً رائعةً لَنَا، ونحنُ نتأمَّلُ وِلادَة قصيدةٍ جديدةٍ لشاعرٍ كبيرٍ..

مرَّت الدقائقُ وكُنَّا نتمنَّى أنْ تطولَ.. ونحنُ نرصدُ حالتَه النفسيةَ وكيفَ يكتبُ.. ويَمْحُو ويُغَيِّرُ ويبدِّلُ الكلماتِ.. حتَّى انتهى.. ثم قالَ:

- أسْمِعُكم ما كتبتُ أَمْ أنَّكم..؟

قاطعتُه: لَيْتَك تُسْمِعُنا يا سيدِّي ؛ لِنكونَ أوَّلَ من يتلقَّى هذه القصيدةَ الجديدةَ.

قالَ: حسنًا.. أسْمِعُكم آخرَ القصيدةِ:

لا بُدَّ أن نَسيرْ

لِشطِّنا النضيرْ..

إنَّـا لمَحْنـاه.. غـدٌ ربيعُـه قـريبْ

يضـوعُ بالعزةِ والصفـاءِ في الدروبْ

لكـلِّ قلبٍ رشفـةٌ مـن ظلِّه الـرطيبْ

لكـلِّ عينٍ قَطْفةٌ من ضـوئهِ الرَّحيب

لكلِّ كفٍّ فـرحةٌ من غرسِها الحبيبْ

فلتمضِ للضفـافِ نارُ زحفِنـا الرهيبْ

ولْتُنْبِتِ الظِّلالُ حيثُ يفهقُ اللَّهيبْ

فليسَ في طـريقِنـا إيمـاءةٌ تـؤوبْ

وليسَ إلاَّ السيرُ والمضاءُ والهبوبْ

ونشـوةُ العبـورْ

في دربِنا الكبيرْ

لا بُـدَّ أن نَسيرْ

لا بـد أن نَسِيرْ.!

صِحْنا بإعجابٍ شديدٍ: الله يا شاعرَنا.. لا فُضَّ فُوكَ..

قلتُ: إنَّها إذًا رحلةٌ طويلةٌ عشتَها، حتَّى إنَّك مصممٌ على المسيرِ حتَّى النهايةِ..

قالَ: فِعْلاً يا بُنيَّ..

قلتُ: نحنُ في شوقٍ لمعرفةِ خطواتِ هذه الرحلةِ..

قالَ: أنَا رجلٌ صعيديٌّ، وُلِدْتُ في عامِ 1910 ببلدةِ النخيلةِ في محافظةِ أسيوطَ.. وتلقيتُ تعليمِي هناك.. ثم رحلتُ إلى القاهرةِ لألتحقَ بدارِ العلومِ؛ لكَيْ أدرسَ العلومَ العربيةَ حتَّى تخرجتُ عامَ 1936..



وقدْ تدرجتُ في الوظائفِ الحكوميةِ من محررٍ بالمجمعِ اللغويِّ.. إلى أَنِ انتهيتُ إلى وظيفة مستشار ثقافي بالإذاعةِ.

قلتُ: وما حكايتُك مع الشِّعرِ ؟

قالَ: هي حكايةُ كلِّ مواطنٍ نشأَ على هذه الأرضِ الطيبةِ.. وثقَّفَ نفسَه حتَّى صارَ مبدعًا.. ولقدْ بدأتُ أكتبُ الشِّعْرَ في سنٍّ مبكرةٍ.. حتَّى عُرِفْتُ في دارِ العلومِ بشاعرِ الكُلِّيةِ.. وأصدرتُ أوَّلَ ديوانٍ لِي، وهو (أَغَانِي الكُوخِ)، وأنا طالبٌ بالكليةِ قبل تخرُّجِي بعامٍ.. ثم توالَتَ دَوَاوِيني: هكذا أُغَنِّي.. أينَ المفرُّ.. نارٌ وأصفادُ.. قابَ قوسينِ.. لا بُدَّ.. التائهونَ.. هديرُ البرزخِ.. صلاةٌ ورفضٌ.. السلامُ الَّذي أعرفُ.. نهرُ الحقيقةِ.. صوتٌ من اللهِ.. موسيقى من السرِّ.. رياحُ المغيبِ..

قلتُ: وما تأثيرُ الطبيعةِ في شِعْرِك يا سيِّدي ؟

قالَ: الطبيعةُ المصريةُ لوحةٌ فنيةٌ رائعةٌ.. شكَّلَها النيلُ منذ آلافِ السنينَ.. ولقد ولدتُ في هذه الطبيعةِ الخضراءِ وظلالِها..وثمارِها..وألوانِها الجميلةِ..وكان لا بدَّ أن ينعكسَ ذلك كلُّه في أَشْعَارِي.. فأنَا ابنُ هذه الطبيعةِ الساحرةِ..

قلتُ: كلُّنا شوقٌ للاستماعِ إلى نموذجٍ من أشعارِك، مُسْتَلْهَمٍ من الطبيعةِ..

قالَ: حسنًا..

أخذَ يعصرُ ذهنَه حتّى قالَ:

إيه يَا قَرْيتي أَصيخي[1] لشاد | سَكَبَ اللَّحْنَ فِي رنين شَجِيٍّ
شَاعِرٌ هَزَّهُ هَوَاكِ فَغَنَّى | لَكِ أُنْشُودَةَ الْجَمَالِ البَهِيِّ
مدَّ أَوْتَارَه أَشِعَّةَ بَدْرٍ | غَارِقَاتٍ فِي صَمْتِكِ السَّرْمَدِيِّ
إيهِ يَا قَرْيَتي لَقَدْ شَفَّ نَايِي | شَجَنٌ فِي الحشَا عَظِيمُ الدَّوِيِّ
غرسَتْهُ يَدُ اللَّيَالي بقَلْبٍ | شَدَّ ما ذاقَ من أَساها العَتِيِّ
فشَدا فِي رُبَاكِ بلبلُ أيْكٍ | هَيَّجَتْه خواطِرُ بالعَشِيِّ
أنتِ أسعدتِه وأشقَيْتِ أرْوَا | حًا تَهَاوَيْنَ فِي حِمَاكِ الشقِيِّ
فاسمعي أَرْغنَ الطبيعة يُلْقِي | وَحْيَ صدّاحِكِ الحبيبِ الوفِيِّ
قَبْلَ أنْ يَغْرُبَ الشُّعَاعُ ويَمْضِي | بِنَشِيدي إلى الفضاءِ القَصِيِّ

صحتُ: حسنًا يا سيِّدي.. حسنًا.. إن الطبيعةَ عنْدَك سيمفونيةُ شعْرٍ وغناء وجمال.. وحبٍّ.. وبمناسبةِ العاطفةِ يا سيِّدي.. فنحنُ نعرفُ كمْ أنتَ صوفيٌّ في حبِّك..

ابتسمَ شاعرُنا بهدوءٍ، وقالَ:

– الحبُّ عاطفةٌ رائعةٌ.. وحبُّ الله أَسْمَى العواطف جميعًا.. ونحنُ حينما نحبُّ نُضَحِّي ونُؤْثِرُ الآخرَ على أنفسِنا.. فما بَالَنَا لَوْ أحبَبْنا الله، فنحنُ نحسُّ أنَّنا نفنَى في جلالِه..

---

(1) أصيخي: استمعي وأنصتي.

قلتُ: والشِّعرُ إبداعٌ يعبرُ عن هذه العاطفةِ..

قالَ: طبعًا طبعًا.. مَثَلاً أقولُ في قصيدةِ (مِنْ نَارِ السكينة).

إلَهي.. وما زالَ في النّاي سرٌّ وشطّ من الوحْي ما زرتُهُ
ولا شَرِبَتْ حَيْرَتِي مِنْه لَحْنًا وَلاَ أيَّ يومٍ بِهَا جِئْتُهُ
عَمِيقٌ كَحُلْمِ الرُّؤَى فِي خَيَالٍ عَلَى غَفْوَةِ الرُّوحِ كَفَّنْتُهُ
تَوَارَى وَأَسْبَلَ أَنْغَامَهُ عَلَى وَتَرٍ كُنْتُ قَطَّعْتُهُ
أَرَاهُ عَلَى الزَّهْرِ لَكِنَّنِي إِذَا صَافَحَ الْعِطْرَ غَافَلْتُهُ
أَرَاهُ عَلَى النَّهْرِ لَكِنَّنِي إِذَا عَانَقَ الْمَوْجَ غَادَرْتُهُ
أَرَاهُ عَلَى الرِّيحِ صَوْتَ الْحَنِينِ تَجَسَّدَ حَتَّى تَأَمَّلْتُهُ
أَرَاهُ بِذَاتِيَ فِي كُلِّ هَمْسٍ وَفِي كُلِّ طَيْفٍ تَخَيَّلْتُهُ
أَرَاهُ يَسِيرُ مَعِي فِي الْحَيَاةِ كِيَانًا خَفِيًّا وَصَاحَبْتُهُ..

وَهَكَذَا...إنَّه السرُّ.. سرُّ الحياةِ وسرُّ الوجودِ.. وسرُّ كلِّ شيءٍ جميلٍ..

قلتُ: هناكَ أيضًا جانبٌ مهمٌّ في شِعْرِك هو الشِّعْرُ الوطنيُّ.. ونريدُ أن تحدِّثَنا عن هذه التجربةِ..

قالَ: الشاعرُ يا بُنيَّ يعيشُ بين الناسِ.. ويسمعُ ويَرَى ويحسُّ.. وإن كان إحساسُه لا يقفُ عن مجرَّدِ الشعورِ.. وإنَّما هو يتعدَّى ذلك إلى الفعلِ.. والفعلُ يعنِي لدى الشاعرِ كتابةَ قصيدةٍ..

وشعراءُ جِيلي كان لديهم حسٌّ وطنيٌّ عميقٌ.. فعبَّروا عن ذلك في قصائدَ بكلِّ إحساسٍ وانتماءٍ لهذا الوطنِ العربيِّ الكبيرِ..

قلتُ: لاَحَظْتُ يا سيِّدي أنَّك تكتبُ الشِّعرَ العموديَّ.. والشعرَ الحديثَ..

قالَ: يا ولدي.. الشِّعر ما صدَرَ عن الشعورِ فى إطارِ الفنِّ.. وسواءٌ أكانَ شعرًا عموديًّا أم حديثًا.. فالمهمُّ هو عنصرُ الصدقِ.. ولقدْ كتبتُ محاولاتي في الشعرِ الحديثِ في مرحلةٍ مبكرةٍ عن التاريخِ المعروفِ لهذه الحركةِ.. لكنَّ النقادَ عدُّوا ذلك مجرَّدَ محاولةٍ وإرهاصٍ.. وأنا غيرُ غاضبٍ مِنْهم.. فسوفَ يأتي زمنٌ تتكشفُ فيه الحقائقُ..

قلتُ: آسفٌ إذا كنتُ قدْ ذكَّرْتُك بالمواجِعِ..

قالَ في ابتسامةٍ: لاَ.. فالتاريخُ هو المنصفُ مهما طالَ الزَّمنُ..

قُمْنَا من مجلسِه وسلَّمْنا عليه.. وتمنَّيْنا له مزيدًا من العطاءِ الجميلِ..

جليلة رضا

كانَتْ تعلمُ بقُدومِنا..

ولأنَّها امرأةٌ.. وَجَدْناها تزيَّنت لاستقبالِنا فوق مقعدِها الوثيرِ.. وقد وضعتْ بجانبِها لافتةً مكتوبةً بلونٍ ذهبيٍّ تقولُ:

يارَبِّ إنِّي سِرْتُ في أمسِي عَلَى دربٍ عَسِيرْ
وَتَلَفَّتَتْ عَيْنَايَ بَيْنَ النَّاسِ فِي قَلَقٍ مُثِيرْ
وعَلَى الطَّريقِ تَسَمَّرَتَ قَدَمَايَ مِنْ تَعَبِ المَسِيرْ
فَلَقَدْ ضَلَلْتُ..ضَلَلْتُ واخْتَلَطَتْ عَلَى عَقْلِي الأُمور..

ألقيتُ عَليها التحيةَ.. فأجابَتْني بابتسامةٍ حزينةٍ على الرَّغمِ من تلك الزينةِ الَّتي وضَعتْها على وَجْهِها.. وأشارَتْ إليَّ بالجلوسِ..

قلتُ: لا بدَّ أن حياتَك كانتَ قاسيةً عسيرةً كما تقولُ هذه اللائحةُ.. فهلْ يمكنُنا أن نتعرفَ عليها.. دون أن نسبِّبَ لَكِ أيَّ حزنٍ جَديدٍ..

تَنَهَّدتِ الشاعرةُ.. وقالَتْ:

- عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أنَّها كانَتْ حياةً قاسيةً، لكنني لا أَمَلُّ من تذكُّرِها..

قلتُ: إذًا نريدُ أن نعرفَ علاماتِها المهمةَ..

قالتْ: وُلِدْتُ في الإسْكندريةِ عامَ 1920.. وتعلَّمتُ في مدارسَ فرنسيةٍ مما جعَلَني أقرأ وأترجمُ عن الأدبِ الفرنسيِّ.. لَكِنْ.. بدأَتْ مأساةُ حياتي حينما زَوَّجَني أهْلِي من قاضٍ يعملُ في الصعيدِ.. وكانَ يَكْبرُني سِنًّا..

ثم تُوَفِّيَ زَوْجي وَأنا ما زلْتُ صغيرةً.. ولي مِنْه طفْلان.. أصيبَ أحدُهما بمرضٍ عَقْليٍّ.. كانَ سببَ شَقَائي وَحُزْني دائمًا.. ثم تزوجتُ صحفيًّا كبيرًا.. لكنَّ الموتَ اختطفَه أيضًا على عَجَلٍ.. فظننتُ أنَّني فَألٌ سَيِّئ على الرجالِ.. وَعشْتُ طَوالَ عُمري بِهذا الظَّنِّ.. وَانعكستْ هذه الحالةُ المتشائمةُ على أَشْعاري..

قلتُ: هَذا قدرٌ يا سيِّدتي..

قالَت: أعلمُ ذلك.. لكنَّنا بَشَرٌ نمتلكُ الإحساسَ المرهْفَ.. ولهذا بدأتُ أخشَى الدخولَ في تجربةِ زواجٍ أو حتَّى تجربةٍ عاطفيةٍ..

قالَ: لكنَّني لاحظتُ أنكِ لم تَسْتَسْلمي لهذا الوَهْم.. وبدأْتِ تَتَحدَّين كلَّ الظُّروفِ.. وتمضينَ في طريقِكِ لتحقِّقي مَجْدًا في عالَمِ الشِّعْرِ..

قالتْ: كانَ لا بدَّ أن أفعلَ ذلكَ.. لهذا استجبتُ لدَعْوةِ الشاعِرْينِ الكبيرَيْن إبراهيم ناجي ومحمد الأسمر، اللذَيْن ساعَداني على نشرِ أَشْعاري..

وكتبتُ أقولُ:

وَسَأَمْضِي فِي كُـلِّ مَكَـان   أَتَحَـدَّى قَـدَرِي وَزَمانِي

أَتَحَــدَّى الصُّــورَ المرئيــه　　أتحــدَّى العــينَ البشريه

لنْ أَجْــرِيَ كالطِّفْلِ الأَهْـوج　　لَنْ أَقْــفِزَ أو أَثِبَ كأعْــرَج

لَــنْ أَزْحَــفَ كالـدودِ كأفْعى　　لَنْ أَعْثَرَفي الدربِ كَأعْمَى

لَـنْ أحــكِيَ للكــونِ حكايـه　　فالوقــتُ ثَمِــينٌ لِلْغَايَـه

وَسَـــأَمْضِي..

قلتُ: ومَضَيْتِ.. وَأَبْدَعْتِ عَددًا من الأعمالِ الشِّعريةِ.. فهل تَذْكُرِينَهَا لنا؟

قالتْ: أصدرت عامَ 1954 ديواني الأوَّلَ «اللَّحْنُ الباكي».. وفي عام 1956 «اللَّحــنُ الثَّائــر» - وفي عــامِ 1959 «الأَجْنحةُ البيضــاءُ» - وفي عـامِ 1961 «أَنا وَاللَّيل» - وفـي عــام 1975 «صَـلاةٌ إلـى الكَلمة» - وفي عــامِ 1982 «العودةُ إلى المحارِ» - ولي مسرحيةٌ شِعْرِيةٌ بعنوانِ: «خَدْشٌ في الجرّةِ»، وروايةٌ نثريةٌ بعنوانِ «تحتَ شجرةِ الجُميزِ»..

قلتُ: وقدْ حصَلْتِ على جائزةِ الدولةِ التشجيعيةِ عامَ 1983.. فما رَأْيُكِ في هذه الجوائزِ ؟!

قالتْ: أَظُنُّها تَقْديرًا لِعطاءِ المبدعِ، تَعْترفُ به الدولةُ، وَهذا جَميلٌ..

قلتُ: نعودُ إلى الشعرِ.. حيثُ يقالُ إنَّ الشعرَ هو ترجمةٌ حقيقيةٌ لحياةِ



الشاعرِ.. فهلِ انعكسَتْ عَلاماتُ حَياتِكِ في أَشْعارِكِ ؟

قالتْ: حَدثَ ذَلكَ بالفعْلِ.. فَقَد أحسستُ بآلام دفينة.. وحرمان من مَلذَّاتِ الحياةِ.. وبدأتُ أَدْخلُ مرحلةَ الشكِّ والقلقِ، فكتبتُ قصيدتي: «ثورَة قلبٍ».. أقولُ فيها:

عَلاَمَ الشَّـكُ يَا قـلْبي   عَلاَمَ الْخَوْفُ والوَجَلُ
وهَذِي الزفرةُ الحــرّى   وهَــذَا الضِّـيقُ والْمَلَلُ
وتلْكَ القِصَّـةُ الكُبْرَى   وأُسْطُــورَةُ آلامِــك
أَلاَ تطْـوِي ألا تَـنْسَى   وتَمْـــحُو طَيْفَ أَوْهَامِـك

وبعدَ هذه المرحلةِ القلقةِ.. انتهيتُ إلى فلسفةٍ تجمعُ بين التشاؤمِ والتفاؤلِ.. بين الموتِ وَالحياةِ.. بين الحزنِ والفرحِ.. بين اليأسِ والأملِ.. وَجَسَّدْتُ ذلك كلَّه في قصيدتي «هواجِس» الَّتي أقولُ فيها:

إنِّي أريدُ أن أموتَ كَيْ أرى وجهَ الفناءْ
لكَي أغَيِّرَ الوجوهَ.. والدُّروبَ.. والضِّياءْ
لكَي أضمَّ في يَدي ما سِوَى هذا الهواءْ
أريدُ أن أَضْحكَ حتَّى إذ بِقلبي ينفجرْ
أريدُ أن أبكِي فتستغني الرُّبَا عن المَطَرْ

أن أسألَ الإلهَ ما جدْوَى السماءِ للنَّظَرْ

أريدُ أنْ أُحِسَّ.. أن أعيشَ.. أن أصبرَ.. أنْ

أريدُ يومًا واحدًا يحوِي الوجودَ والزَّمنْ..

وكما ترى هو حزنٌ دَفينٌ على مَأْساتي الخاصّةِ.. حِرْتُ بينَ الحياةِ والموتِ.. وبين الشكِّ واليقينِ.. لكنني لم أَسْتَسْلم لذلك.. فأخذتُ أبتسمُ للحياةِ.. وأحتضنُ شمسَ الأملِ، وأهتفُ في قَصيدتي: «صلاةٌ إلى الكلمةِ»:

انْطَلِقي مِنْ جَوْفِ الظُّلْمَه يَا جَسَدَ الفِكْرَة يا كَلِمَه

هَيَّا هُــزِّي هُــزّي قَلَمِي وانْتَفِضِــي فِي ثَـوْرَةِ أَلَمِـي

أَيَّتُهَا الْكَلِمَةُ صُوغِيني فَنًّا يَرْتَفِعُ بدُنْيَاه

صُوغِي مِنْ إيمَانِي مَرْسًى لِلْهَائم فِي بحرِ أساه

لُـمِّي أَعْمَاقِي المحطُومَةَ وَرْدًا أَتنفَّسُ بِشَذاه

فالألمُ هو الفنُّ الخالدُ هاتِيهِ فَكَمْ أتمنَّاه

وَخُذِي عُمْرِي أَجْرَ نَشيدٍ قُدْسيٍّ بَارَكَهُ الله

قلتُ: حَسَنًا يا سيِّدتي الشّاعرةَ المبدعةَ.. ويبدو أنك أيضًا تملكينَ حسًّا مُرْهفًا للعالمِ من حولِك.. تحدثتِ عن العَصافيرِ.. عن الزَّوارقِ في البحرِ.. عن النملِ.. عن الزَّهْرةِ والفراشِ.. عن الرَّبيعِ.. عن الشتاءِ.. عن الليلِ.. وألاحظُ

أنكِ تتوحدينَ مع هذا العالمِ وتصلينَ إلى جوهرِهِ وتعبِّرينَ عنه..

قالتْ: شُكْرًا لك على هذه الملاحظةِ الذَّكيةِ.. فالشاعرُ يتأمَّلُ العالمَ من حولهِ حتَّى يلتقطَ صورةً أو موقفًا شاعريًّا يعبرُ عنه.. فهذه عُصفورةٌ، تَحكي لي قِصَّتَهُا على هذا النحوِ:

مَسَاءَ الخيرِ يا أُخْتي.. مساءَ الخير يا جَارَه
وقفتُ هنا علَى الشُّبَّاكِ أستجديكَ مُنْهارَه
فهلْ تَرْضِينَ أن تُصْغِي إلى أَلَمِي
وتَرْتَاحِينَ آونةً مِنَ الأَوْراقِ والقلمِ
وتستمعينَ في عَطْفٍ إلى شَكْوَايَ يا جاره؟
لَقَدْ غَادَرْتُ أَبْنَائِي لأَعْلُو الأفْق مَسْرُورَه
فرغمَ أمومتِي إنِّي كما تدرِينَ.. عُصْفُورَه
أجَلَ حَلَّقْتُ في الآفاقِ صاعدةً ومُنْحَدِرَه
وحينَ رجعْتُ بعد العصرِ لم أعثرْ على الشجَرَه
فأينَ أريحُ أجْنِحَتِي وأينَ أنامُ يا جارَه؟

ثُمَّ تَحْكي العصفورةُ أنَّها لم تجدْ بَيْتَها؛ لأنَّ الحطَّابَ اغتالَ الشَّجرةَ والبيتَ، ثم تسألُ العُصفورةُ الشَّاعِرةَ في النِّهايةِ:

أَجِيبي.. هَلْ أُعِيدُ اليومَ إشعالَ الهَوَى الْخَابِي

وأَبْنِي هَا هُنا عُشًّا عَلَى شُبَّاكِك الأَخْضر

أجِيبِي.. إنَّنِي حَيْرَى.. أرِيدُ الحَلَّ.. يَا جَارَه ؟

قلتُ: إنَّها قصةٌ دراميةٌ جَميلةٌ بينكِ وبَيْنَ العُصفورةِ.. وأذكرُ أَنَّ لَكِ قصيدةً عن النَّملِ أيضًا، هى قصيدةُ (عظمةُ الله) أَلاَ تُسْمِعينا بعضًا مِنْها:

قالتْ:

النَّمــلُ يمشِي في رِضًى وسَلامِ — ويَدُبُّ فَوْقَ الأرْضِ في استسلامِ

يَجْـرِي كَمَنْ يخشَى فواتَ أَوَانِه — متعثِّرَ الخُطُـواتِ دونَ نظــامِ

وأَنَــا علَى الإفريــزِ أَرْقبُ سَيْرَه — حَيْرَى.. يُنَــازِعُني شــعورٌ دامِ

أَمْشِـي مقيــدةَ الخُـطَى هَيَّابَةً — حــتَّى أجَـنِّبَه أَذَى أَقْــدَامِي

وبعدَ رحلةِ التأملِ أيقنتُ أخيرًا:

إني أرى الخلاَّقَ جلَّ جلالُه

في نملةٍ تَطْوِي الطريقَ أمامِي..

قلتُ: لاحظتُ أن أسماءَ أعمالكِ أيضًا تتميزُ بهذا الحسِّ الذاتيِّ الَّذي يعبرُ بصدقٍ عن حياتِك وأحوالِك النفسيةِ..

قالتْ: كنتُ صادقةً مع نفسي، وأتمنَّى أنْ أكونَ قد أَضَفْتُ شَيْئًا إلى ساحةِ الشِّعْر..

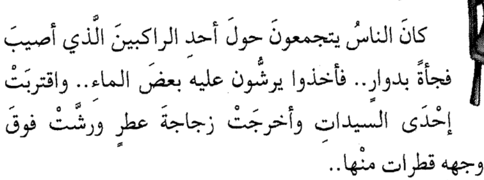
قلتُ: أضفتِ الكثيرَ يا سيِّدتي.. وعِشْتِ مَعَنا بهذا الشِّعْرِ الجَميلِ..

أَسْتَوْدِعُكِ اللهَ..

وتركتُ جليلة رِضا مع كلِّ كلمةٍ صادقةٍ أَبْدَعَتْها.



إبراهيم ناجي



دخَلْنا القطارَ نبحثُ عَنْه..

سمِعْنا أصواتًا تصيحُ: دكتورُ.. دكتورُ..

كانَ الناسُ يتجمعونَ حولَ أحدِ الراكبينَ الَّذي أصيبَ فجأةً بدوارٍ.. فأخذوا يرشُّون عليه بعضَ الماءِ.. واقتربَتْ إحْدَى السيداتِ وأخرجَتْ زجاجةَ عطرٍ ورشَّتْ فوقَ وجههِ قطراتٍ منْها..

ثم هَا هُوَ يسرعُ من مقعدِه بصحبةِ أحدِ الناسِ، ويقتربُ من الرجلِ المريضِ.. فيفسحُ له الناسُ.. يقولُ:

- لَوْ تسمحونَ.. ابتعدوا حتَّى يستطيعَ التنفسَ..

أخذ يكشفُ عليه بيدِه.. ويضعُ أذنَه على قلْبِه.. ويمسكُ بيدِه ليَعُدَّ دقَّاتِ نَبْضِه وينظرَ في ساعتِه.. وها هو يخرجُ من حقيبتِه حبةً بيضاء ويقولُ: كوبَ ماءٍ..

يشربُ المريضُ الحبةَ بالماءِ.. ثم يقولُ الطبيبُ: سَيُفيقُ بعدَ قليلٍ.. لا تنزعجوا.. المهمُّ ألاَّ تتجمعوا هكذا علَيْه.. وافتحوا الشُّبَّاك المجاورَ له ..

تركهمُ الطبيبُ وعادَ إلى مقعدِه..

اقتربتُ مِنْه.. سألْتُه: الطبيبُ الشاعرُ إبراهيم ناجي ؟!

قالَ بابتسامةٍ صادقةٍ: يقولون عَنِّي طبيبَ الشعراءِ.. وشاعرَ الأطباءِ.. أعالجُ المشاعرَ والآلامَ.. وأناجي القلوبَ المهمومةَ..

قلتُ: أنْتَ كذلك فعلًا يا سيِّدي.. فكيفَ كانَتْ رحلتُك مع الشعرِ والطبِّ؟

قالَ: لمْ يكنْ في بالي أن أكونَ طبيبًا.. فأنا من أسرةٍ تحترفُ مهنةً الإتجارِ في الخيوطِ الحريريةِ القصبيةِ لتطريزِ الملابسِ.. وقد وُلِدْتُ في حَيٍّ شبرا بالقاهرةِ في ديسمبرَ 1898م.. لكنَّني كنتُ أعشقُ القراءةَ، وأنا في سنٍّ صغيرةٍ.. وأذكرُ أنَّ أوَّلَ ما قرأتُ من مكتبةِ أبي كانَ قصةَ (عذراءِ الهندِ) للشاعرِ أحمدِ شوقي.. فلمَّا وجدَ أَبِي لَدَيَّ مَيْلاً للأدبِ.. أخذَ يرتادُ بِي المنتدياتِ الأدبيةِ في القاهرةِ.. وبدأتُ أتعرَّفُ إلى الشعراءِ والأدباءِ عن قربٍ..

قلتُ: وما أوَّلُ قصيدةٍ نَظَمْتَها أيُّها الشاعرُ الكبيرُ ؟

قالَ: أنا لا أتذكَّرُ.. لكنَّني أتذكرُ قصيدةَ (عَلَى البحرِ)، نَظَمْتُها وأنا في الثالثةَ عَشْرَةَ من عمري، تقولُ:

هَلْ أنتِ سامعةٌ أنينِي   يا غايـةَ القلبِ الحـزينِ
يا قِبْلـةَ الحبِّ الخفيِّ   وكَعْبَةَ الأمـلِ الدفـينِ

إنِّي ذكرتُكِ باكيًا والأفْقُ مغبَّرُ الجَبينِ

والشمسُ تبدو وَهْيَ تغربُ شِبْهَ دَامعَةِ العيونِ

أمسيتُ أرقبُها على صخرٍ وموجُ البحرِ دُونِي

والبحرُ مجنونُ العُبَابِ يُهِيجُ ثَائِرُه جُنُونِي

ورِضَاكِ أنتِ وِقَايَتِي فإذا غَضِبْتِ فَمَنْ يَقِينِي

قلتُ: أعرفُ أنَّك تعلمتَ الإنجليزيةَ والفَرنسيةَ.. فهلْ ساعدَك ذلك على التعرفِ على الأدبِ الأجنبيِّ ؟!

قالَ: لقدِ التحقتُ بكليةِ الطبِّ، وتخرجتُ فيها عامَ 1932، وأنا أتقنُ اللغةَ الإنجليزيةَ ثم تعلمتُ الفرنسيةَ، وقرأتُ شعرَ الرومانسيينَ الفرنسيينَ، وترجمتُ لِبُودْلِيَر - أزهارَ الشر - وقرأتُ الرَّمْزِيِّين.. وقرأتُ في عِلْمِ النفسِ ونظرياتهِ الحديثةِ.. وكنتُ معجبًا بالكاتبِ الإنجليزيِّ د. هـ. لورانس.

قلتُ: وتوالتْ أعمالُك الشعريةُ..

قالَ: في عام 1934 نشرتُ ديواني (وراءَ الغمام)، وأثارَ كثيرًا من النقدِ والجدلِ بين النقادِ.. ثم أصدرتُ (ليالي القاهرةِ) و (الطائر الجريح).. وهناك قصائدُ أخرى لم توضعْ في هذه الدواوينِ.. جُمِعَتْ بَعْدَ ذلك في أعمالي الكاملةِ.

قلتُ: لقد غنَّتْ لك أمُّ كلثوم الأطلالَ..



قالَ: سمعتُ بذلك.. أَكْرَمَهُ اللهُ أحمدَ رامي.. هو الَّذي أقنَعَها بذلك، وقدَّمَ لها مختاراتٍ مِنْ شِعْرِي، وأطلقَ عليها الأطلالَ..

قلتُ: نريدُ أن نسمعَ بصوتِكَ بعضًا من هذه القصيدةِ:

قالَ:

يَا فُؤادِي رَحِمَ اللهُ الهَوَى   كانَ صَرْحًا من خيالٍ فَهَوَى
اسْقِنِي واشربْ عَلَى أطلالِهِ   وارْوِ عنِّي طَالَمَا الدمعُ رَوَى
كيفَ ذاك الحبُّ أمْسَى خَبَرًا   وحَديثًا من أحاديثِ الجَوَى
وبِسَاطًا مِنْ ندامى حُلُمٍ   هُمْ تَوَارَوْا أبَدًا وَهْوَ انْطَوَى
يَا رِيَاحًا ليسَ يَهْدَى عَصْفُهَا   نَضَبَ الزَّيْتُ ومِصْبَاحِي انْطَفَا
وأَنَا أَقْتَاتُ من وَهْمٍ عَفَا   وأَفِي العُمْرَ لِنَاسٍ مَا وَفَى
كَمْ تقلَّبْتُ عَلَى خِنْجَرِه   لا الهَوَى مَالَ ولا الجفْنُ غَفَا
وَإِذَا القَلْبُ عَلَى غُفرانِهِ   كلَّما غارَ بِهِ النصلُ.. عَفَا
لَسْتُ أنساكَ وقَدْ أغْرَيْتَنِي   بِفَمٍ عذْبِ المناداةِ رَقِيقْ
ويدٍ تَمْتَدُّ نَحْوِي كيدٍ   من خلالِ المَوْجِ مُدَّتْ لغَرِيقْ
آهِ يَا قُبْلَةَ أقدَامِي إذا   شَكَّتِ الأقْدَامَ أشْوَاكُ الطريقْ

وبريـــقًــا يظمــأ السَّارِي له   أينَ من عينيكَ ذيَّاك البريقْ

قلتُ: حسنًا يا شاعَرنا.. لكنّنا نعرفُ أنَّك رحلتَ إلى المنصورةِ الَّتي كانَتْ أرضًا للشعرِ والشعراءِ..

قالَ: هذا صحيحٌ.. بعدَ تخرُّجي في كليةِ الطبِّ، عملتُ سنواتٍ بالقاهرةِ، ثم انتقلتُ إلى القسمِ الطبِّيِّ بسوهاجَ.. ثم نقلتُ إلى المنيا وأخيرًا إلى المنصورةِ في عامِ 1927.. وفيها تعرفتُ على أصدقائي الشعراءِ: عَلِي محمود طه.. صالح جودت.. محمد عبد المعطي الهمشري.. وبَدَأْنا رحلةَ شعرٍ وثقافةٍ طويلةٍ.. وكنَّا نلتقِي على شاطئِ النِّيلِ عندَ صخرةِ الملتقى.. وبالمناسبةِ كلٌّ واحدٍ منَّا كتبَ قصيدةً عند هذه الصخرةِ..

قلتُ: وماذا قلتَ في قصيدتِك يا سيِّدي ؟

قالَ:

سألتُـــكِ يا صخـــرةَ الملتقَى   متَى يجـــمعُ الدَّهـــرُ ما فرَّقــا

فَيَـــا صخـرةً جمعَتْ مُهْجَتَيْنِ   أَفَـــاءَا إلى حُـــسْنِها الْمُنْتَقَى

إذا الدَّهْـــرُ لَـــجَّ بأقــــدارِه   أَجَـــدَّا على ظَهْرِهَـــا الموْثَقَا

قرأْنَـــا علَيْـــكِ كِـــتَابَ الحَيَـاةِ   وَفَضَّ الهَـــوَى سِــرَّهَـــا المغْلَقَا

نَرى الشَّمْسَ ذائبـةً في العُبَابِ   وَنَنْتَظِرُ البَـــدْرَفِـــي المرْتَقَـــى

إذا نَشَـــرَ الغَـــرْبُ أثْـــوَابَـهُ وَأَطْلَقَ في النَّفْسِ ما أطْلَقَـــا
نقـولُ هـلِ الشمسُ قدْ خضَّبَتهُ وخلَّـــتْ بـــهِ دَمهَـــا الْمُهْرَقَـــا
أَمِ الغربُ كالقلبِ دامِي الجراحِ لَـــهُ طُلْبَـــةٌ عَـــزَّ أنْ تلْحَـــقَا

قلتُ: إذًا أنتَ تنتمِي إلى المدرسةِ الرومانسيةِ..

قالَ: نَعَمْ.. فأنَا أحبُّ الحياةَ والطبيعةَ والجمالَ.. والإحساسَ المرهفَ.. والشاعرُ الَّذي لا يمتلكُ هذا الحبَّ يصيرُ شعرُه جافًّا جامدًا..

قلتُ: ألاَحِظُ أيضًا في أشعارِك أن لك فلسفةً في الحياةِ.. فهل يمكنُ أن تشرحَها لنا ؟

قالَ: أنا أعيشُ كلَّ لحظةٍ من حياتي بكلِّ كياني.. حينما أحبُّ.. أحبُّ بكلِّ كياني، وحينما أغضبُ أغضبُ بعمقٍ.. وعِنْدَما أرثي أرثي بوفاءٍ وإخلاصٍ.. المهمُّ أن يُترجمَ شِعْرِي كلَّ هذه المشاعرِ بصدقٍ.. لي قصيدةٌ بعنوانِ (عاصفةُ روحٍ)، نظرتُ فيها إلى الحياةِ والكونِ نظرةً عميقةً فأقولُ:

أيـنَ شـطُّ الرجاءْ يَا عُـبَابَ الهُمُومْ
لَيْلَتِي أَنْـــوَاءْ وَنَهَـــارِي غُيُومْ
أعْوِلِي يَا جِـرَاحْ أَسْمِعِي الدَّيَّـــانْ
لاَ يُهِمُّ الرِّيَـــاحْ زَوْرَقٌ غَضْبَـــانْ

اسْخَرِي يَا حَـيَاة			قَهْقَهِي يَا رُعُــــودْ
الصِّــــبَا لَنْ أَرَاه			وَالْهَوَى لَنْ يَعُــودْ
الأمــــانِي غُــرُور			فِي فَــمِ الْبُرْكَــــانْ
وَالدُّجَى مَخْـمُور			والرَّدَى سَــــكْرَانْ

قلتُ: أرى أنك كَتبَتْ في أغراضٍ كثيرةٍ، كانَ في مقدمتِها الغزلُ ..



قالَ: بالطبعِ يا بُنَّي.. فالرجلُ والمرأةُ شريكانِ في الحياةِ لا غِنَى لأحدهِما عن الآخرِ.. لكنَّني كتبتُ في الوطنياتِ.. والرثاءِ.. والمداعباتِ.

قلتُ: ماذا تعنِي بالمداعباتِ يا سيِّدي ؟!

قالَ: إنها لونٌ تلقائيٌّ من الشِّعرِ، أداعبُ بِهِ أصدقائي الشعراءَ والأدباءَ..

قلتُ: نريدُ أن نستمعَ إلى نموذجٍ من هذا اللونِ..

قالَ: أقولُ لابْنَتِي، ضُحَى، مثلاً:

إِلَيْـكِ يَا ضُوحيتِي   أَبْعَـثُ بِالتَّحِـيَّةِ
تَحِـيَّةً مِـنْ قَلَمِي   وَمِثْلَهَا مِنْ مُهْجَتِي
إِنَّكِ كَالزَّهْـرَةِ فِي   جَمَالِهَا وَالرِّقَّـةِ
تَقَبَّلِي مِنْ رَوْضَـةِ الأَ   شْـعَارِ خَيْرَ زَهْرَةِ
عَبِيرُهَا خَوَاطِـرِي   ومِلْؤُهَا مَحَـبَّتِي..

قلتُ: وماذا عن الوطنياتِ ؟

قالَ: أنا أحبُّ وطَني، وكتبتُ أكثرَ من قصيدةٍ في هذا الغرضِ.. لكنَّني وجَّهْتُ قصيدةً إلى الشبابِ، أقولُ فيها:

وَطَـنٌ دَعَا وَفَتًى أَجَاب بُورِكْتَ يَا عَزْمَ الشَّبَاب

يَافِتْيَةَ النِّيــلِ الْمُسَالِمِ وَالْكَـرِيم بِــلاَ حِسَاب

جَـــنَّاتُـــهُ مِرْآتُــكُمْ.. وَلَكُمْ خَلاَئِقُهَا العِذَاب

قُلْ لِلشَّــبَابِ الْيَوم يَوْ مُكُمْ الأَغَرُّ الْمُسْتَطَاب

الْيَوْمَ يَبْــدُو حُبُّ مِصْر فَـلاَ خَفَـاء وَلاَ حِجَــاب

أحسستُ بعد هذه الرحلةِ أنَّني أجهدتُ شاعرَنا.. فقلتُ له: لنْ نشبعَ من شعرِك يا سيِّدي.. لأنَّه باقٍ فينا بقاءَ الدَّهرِ.. وودَّعْناه.. بكلِّ الحبِّ والامتنانِ..



كلمة الختام

وَالآنَ.. بَعْدَ أَنِ انْتَهَتْ رِحْلَتُنا وَوَصلَ قِطارُنا إلى محَطَّته الأخيرة.. نَرْجو أَنْ تكونَ، عَزيزِي القارِئ، قَدْ أَمضيتَ مَعَنا رِحْلةً مُمْتعةً وَوقْتًا جَميلاً.. وَلعلَّكَ أَدْرَكْتَ سِرَّ الكلمةِ حينَ يُغَلِّفُها الصِّدقُ وَيَمْلؤها الوِجْدانُ، فَتَعِيش وَتَبْقَى على مَرِّ الزَّمان..

أحمد سويلم



المحتويات

رحلة في قطار الشعراء

تخيل المؤلف قيامه بهذه الرحلة الفريدة .. ليمنح القارىء فرصة رائعة لأن يتعرف جوانب جديدة عن كل شاعر من الشعراء الذين يقابلهم في القطار بصحبة المؤلف.. من هذه الجوانب : الرحلة التي أمضاها كل شاعر في رحاب الأيام .. ملامح أدائه الشعري .. السمات الإنسانية المتفردة لكل منهم..

إن بداخل كل منا عشقًا لاتخاذ القطار رمزًا للسفر والترحال الذي نهواه جميعًا.. فما بالك وركاب القطار الذي ترتحل به من الشعراء.. لاشك أن الأمر سيكون ممتعًا ورائعًا إلى أبعد حد..

نرجو لك رحلة سعيدة..





